بائعة الأعشاب

قصص

من الواقع

حنان رحيمي

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
1436 هـ - 2015 م

ISBN: 978-614-02-2615-9

جميع الحقوق محفوظة

توزيع

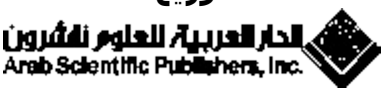

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: jchebaro@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش. م. ل

تصميم الغلاف: علي القهوجي

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف (9611+) 785107
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف (9611+) 786233

الإهداء

أهدي حكاياتي النائمة إلى من

يتقنون صناعة الصباح..

المقدمة

حنان رحيمي وقصصها
صورة إنسانية

علي أ. دهيني

كانت مجموعة "المعذبون في الأرض" للأديب العربـي الكبير طه حسين، علامة فارقة في نقل الحياة الاجتماعية المغيَّبة، من بيوت الطين ودساكر العذاب، إلى عباب المجتمع، في قالب قصصي متكامل العناصر، ما جعلها وسيلة خطاب للمشاعر الإنسانية قبل أن تكون رسماً لواقع مهمل، مغيّب، مظلوم، مأكول القدرات على مستوى الطبقات الاجتماعية.

كما وجدتني أستحضر مجموعة قصص "العَبَرات" لمصطفى لطفي المنفلوطي التي ترجمها من الفرنسية، بأسلوبه الخاص، بل عرَّبها، لتأخذ نكهتها العربية.

راودتني هذه الصورة حين تجمعت لديّ هذه المجموعة من القصص القصيرة للكاتبة حنان رحيمي، والتي رسمت فيها وجهاً لواحد من وجوه العذاب التي تكاد - لكثرتها - تغيب عن البال والانتباه..

لا ريب أن في القصة القصيرة معاناة لدى الكاتب لا يدركها إلا صاحب هذا الفن من الأجناس الأدبية، لما يحتاجه من إمكانات لغوية وتحليل شخصية وقدرة على الإحاطة الشاملة بأقل قدر من الكلمات.

من هنا كادت، القصة القصيرة، أن تنافس الرواية في موضوعها، لولا أن القصة القصيرة محكومة في الزمان والمكان والشخص وصغر المساحة.

وفي القصة القصيرة، لا بُدّ من الاحتكام إلى لغة معيّنة غير اللغة التي تُسرد بها القصة الطويلة/الرواية، فهي تتجلّى إبداعاً إذا تمكن الكاتب من استعمال لغة النثر أو التجريد أو الترميز، في حال من أحوال الكتابة. كما يصفها "جورج بيركنز"، فيقول إن القصة القصيرة هي نوع من النثر الفني القصصي أو الحكائي، وهذا ما لم تفعله حنان، بل ذهبت مذهب "غوغول" الكاتب الروسي، لتعتمد لغة الواقع المباشرة، في توصيف الأحداث والسرد الحكائي، لأن همّها تقديم موضوعها المجسّد في شخصيات قصصها. كما أنها اعتمدت تعريف إمبرت أندرسون للقصة القصيرة بأنها حكاية، "يمكن أن تُقرأ في جلسة واحدة".

وكذلك وجد الفرنسي "موباسان" أن القصة القصيرة تجيء منفصلة، وتعبيراً عن لحظة محدّدة. وهذا ما نلمسه في غالبية قصص حنان، إذ إنها إن أدركتها اللحظة المؤاتية هرعت إلى أوراقها تنقلها كما هي، طلباً لأثرها في نفسها وما تدركه من معاناة تتراكم عبر اللحظات، لتشكل سيرة مجموعة كبيرة من

"المعذبين في الأرض"، لأن غايتها التعبير عن واقع أليم، فهي كما "أنطوان تشيكوف"، تغرف من واقع الحياة. ولذا لا بُدّ من استعمال لغته.

أيضاً، لا يفوت بُعَيْد النظر، أن القصة القصيرة وجدت في الأدب العربـي منذ زمن بعيد، بخلاف ما يقال إنها مستوردة من الغرب. صحيح أن الغرب سبقنا في توصيف وتصنيف القصة القصيرة كجنس من الأجناس الأدبية، إلاّ أن الأقدمين السابقين من العرب، في لغة الأدب، كتبوها وكانت منتشرة في حلقات تسامرهم كحكاية تُروى وتنتهي في سهرة يختمها الحاكي أو المؤلف.

وخير دليل ما حملته المرويات عن أبـي القاسم الحريري البصري ومقاماته، وعن أحمد بن حسين المعروف بالهمذاني ومقاماته بديع الزمان، عدا عن حكايات ألف ليلة وليلة. وكثير غيرها من حكايات الجاحظ وغيره.

وبالعودة إلى ما بين أيدينا، في هذه المجموعة القصصية، شعرتُ أن الكاتبة حنان رحيمي، رغم كلاسيكية موضوعاتها وأسلوبها في السرد، تمكنت من ربط موضوع قصتها بين الشخصية بذاتها، التي من المفترض أنها عماد القصة، وبين البيئة التي عاشت فيها هذه الشخصية، بحيث إنها لم تحمِّل شخصيتها ما فُرض عليها نتيجة ولادتها في بيئة معيّنة أو جاءت بها الظروف لتوجد في بيئة معينة، كما في قصة "سامحيني.. يجب أن أكذب عليك!". أو في قصة "بائعة الأعشاب" أو غير هاتين القصتين، بل في أغلب القصص، تتشارك الشخصية مع البيئة، بل ومع الزمان والمكان، لأن الكاتبة لا يبدو أنها تملك الخيار بقدر ما هي محكومة في اختيار موضوعاتها، بحسب توجّهها في الكتابة، ونتيجة لما يبدو أنها حبيسة الموضوع العام الذي طبع قصصها، وهو مأساة الإنسان. وهذا يعود في حقيقته، إلى أن الكاتبة تعاني في حياتها قبساً لا بأس به من معاناة أشخاص قصصها نتيجة قربها من الأمكنة التي تدور فيها أحداث هذه القصص.

وأكثر ما يستشف من هذه القصص أن حنان رحيمي عاشت مرحلة نضجها الفكري إبان الحرب اللبنانية، وعاينت ما جرى فيها من أحداث على أرض الواقع، كما في قصة "حكاية رماد" إلاّ أنها لم ترسلها في مجموعتها هذه، إنما نقلت بعض البؤس الذي خلفته تلك الحرب من أوضاع اجتماعية صعبة، في روايتها "حياة.. في منتصف الموت".

ولعل القارئ سوف يتلمّس بعضاً من معاناته خلال قراءته هذه المجموعة، بل ولعله يراها في كثير من الوقائع من حوله، لأنها ليست خطاباً لمجتمع وبيئة واحدة، إنما هي من صميم الحياة الإنسانية في أي مجتمع.

***15/9/2015* بيروت**

سرقوا صوت أمي!

وحيدة تتقلّب على فراش من شوك، وسادتها جمر، قلبها نار، الجسد هنا والروح غادرت بعيداً إلى ما وراء البحار حيث الجزء الآخر منها، إلى أمها..

اتصال من هناك، من بلدها الآسيوي، أبلغها أن صحة أمها تدهورت وأنهم سيتصلون بها صباحاً لطمأنتها..

ما زال الصباح بعيداً.. ترى كيف أنت الآن يا أمي؟!..

سنة وأنت بعيدة عني.. ليت العمر يُباع لكنت اشَتَرَيْتُ به رؤية وجهك وسماع صوتك..

وحدها الجدران تتلقّف أنينها، يا له من وقت ثقيل حين يفقد الفجر طريق البزوغ في ليل الغربة..

أين أنت أيها الصباح!

* * *

حدّقت إلى وجه أمها طويلاً.. كانت مغمضة العينين تستعيد بعض أنفاسها بعد نوبة سعال حادّة..

- كيف سأخبرك أنني مسافرة بعد ساعات، بعيداً عنك خلف البحار؟..

كيف سيتلقّى قلبك وجع رحيلي وأنتِ على ما أنتِ عليه؟..

حاولت لجم عينيها عن الدموع كي لا تراها والدتها، ولكنها سالت مدراراً من قلبها.

صوت ضعيف واهن جرَّحه السعال قال بخوف:

- ما بك يا ابنتي؟ لماذا تبكين؟..

وقع نظرها على الحقيبة، انتفضت وكأن الخوف مما جال بفكرها، أعاد إليها قوتها:

- ما هذه الحقيبة؟.. إلى أين؟..

لم يأتها الجواب، ولكنها فهمت كل شيء.. قالت وهي تكاد تلفظ روحها مع الكلمات:

- كان حدسي وقلبـي ينبئانني أنك تخطّطين لشيء ما، وكنت أكذّب نفسي.. أرجوك لا تتركيني يا ابنتي.

سجدت أمام سرير والدتها تقبّل يديها:

- سامحيني، من أجلكِ سأرحل.. ولولا وجود جدتي بجانبكِ ما كنت تركتكِ.

اللحظة تكرّر نفسها!.. إنها العبارة التي قالتها لابنتها منذ خمس سنوات حين

وقفت تودعها قبل الرحيل:

- سامحيني يا ابنتي، من أجل عينيك سأرحل للعمل في بلد آخر..

ستكملين دراستك، وتعملين بمهنة لائقة، لن تكوني خادمة كأمك..

سيكون لنا مال ومنزل، سأعمل ليل نهار..

ستبقين مع جدتك، سنتان فقط وتمران بسرعة.

هذه الذكرى أشعلت قلبها، استدارت نحو ابنتها ممسكة يدها:

- لا.. لن ترحلي، فأنت لا تعرفين ماذا سيكون بانتظارك.. لن أسمح لمأساتي أن تتكرر...

تعرفين كم عانيت في غربتي، ذهبت بأحلام كبيرة وعدت بجسد نخره المرض..

في ذلك البلد الغريب يا ابنتي عرفت معنى الجحيم..

استرسلت الأم في استعادة ذكرى الألم بانفعال وغضب وكأنها تعيشها اللحظة، في محاولة لثني ابنتها عن قرار الرحيل.

- صادف يا ابنتي أن كان عملي في منطقة جبلية باردة، وكان الوقت بداية فصل الشتاء، وكان البيت كبيراً يعصف الصقيع في أرجائه..

كان أصحاب المنزل يجلسون قرب الموقد يتدفئون، وأنا أعمل على خدمتهم، وتلبية طلباتهم التي لا تنتهي، وكأنني لست من لحم ودم، أو كأنني آلة صماء لا يخترقها البرد.

حين لا يكون هناك عمل داخل البيت كانت "المدام" تأمرني بتنظيف الحديقة والشرفات، وسط الرياح والزمهرير.

ما أكاد أنتهي من عملي حتى تكون أطرافي قد تجمّدت وازرقَّت، والألم نخر عظامي. وحين كنت أشكو المرض كانت "المدام" تقول لي:

- طالما أنت غير قادرة على العمل لماذا أتيتِ من بلادك؟!..

ندفع أموالنا لجلبكم لخدمتنا وتتمرّدون علينا.. لغة الخدم هذه أفهمها جيداً، ما رأيك أن تستلقي في السرير وأنا أخدمك؟

تقهقه:

- يبدو أنك جئت للسياحة أيتها السيدة وأنا لا أعلم!

* * *

- انظري يا ابنتي ما جنيته من الغربة:

- رئتان تنفثان الدم، وكرسي متحرك يحمل عظامي المتهرئة.

لم تستطع النظر إلى عيني أمها، عانقتها، امتزجت دموعهما..

- لن أتركك تموتين أمامي، المناديل التي كنت تخفينها عني بعد كل نوبة سعال حين تبصقين فتات رئتيك كنت أراها..

يدك وهي تقبض على علبة الدواء وكأن روحك داخلها، بعد أن نكون

تسوّلنا ثمنها، أنا وجَدّتي، كنت أراها..
بحثت طويلاً عن عمل دون جدوى.. عندها أدركت أن دواءك بعيد، موجود في مكان ما على هذه الكرة الأرضية، ثمنه الغربة...
لن أتركك، وقد سهرتِ قلقاً عليّ بعد وفاة والدي وأنا طفلة، عملتِ في كنس الشوارع، في تنظيف حظائر الحيوانات.. كنت تسيرين مسافات طويلة إلى عملك لتوفير أجرة النقل..
في العيد لم تكن ثيابك تتبدّل، وكنت تلبسينني أجمل الثياب.

✳ ✳ ✳

بدأ الفجر ينشر نوره ولكنه لا يعلم أن نوره لا يصل إلى كل الناس.. تنفّست الصعداء، اقترب موعد الهاتف المنتظر.. إنها السابعة صباحاً، رنين الهاتف مزّق هدوء المنزل. أمسكت السماعة دون وعي:
- أمي كيف حالك أمي!..
صوت جدتها كان على الطرف الآخر:
- هي الآن بخير.. تحسّنت حالتها، وحين تستطيع الكلام سأتصل بك..
صوت سيدة المنزل يرتفع غاضباً:
- مَن سمح لهؤلاء الأغبياء الاتصال بك في هذا الوقت المبكر؟.. اللعنة عليكم، أيقظتني من نومي أيتها القذرة.. ألم تفهمي بعد أنني لا أستيقظ باكراً؟
أغربـي عن وجهي.. تباً لكم من بشر لا يفهمون بالإتيكيت.
ابتلعت الإهانة، اعتادت على ابتلاع سموم السيدة وقالت:
- كم طلبت منك السماح لي بشراء هاتف وكنت ترفضين.. لكنتُ استغنيت عن إزعاجك!
- هذا ما كان ينقصني، أن تتلهي به عن عملك وتقضي الوقت مع صديقاتك الخادمات على الهاتف ليفسدنك أكثر مما أنت فاسدة.
حمل النهار وعكة صحية للسيدة، أحضر لها أولادها الطبيب الذي قال بلطف زائد:
- لا عليك سيدتي، إنها نزلة برد...
حضر أولادها وأحفادها، تبارى الجميع في تدليلها، وهي تمعن في تدليل نفسها، كلما لاح لها أحد من العائلة كان يرتفع أنينها.. وتختلق السعال.
اقتربت من سرير السيدة لتقدم لها الدواء وكوب عصير.. مضطجعة في سريرها الوثير بثياب نوم هفهافة وكأنها على وشك الخروج إلى السهرة...
"آه يا أمي، حين كان ينتهي الدواء لديك، كان صراخ ألمك يمزق الجدران وأغطية الفراش.. كان على جسدك المريض أن يتمزّق طويلاً من الألم لحين

الحصول على الدواء".
شعرت بدوار، سقطت الصينية من يدها.
صرخت السيدة وكأن مجموعة من الشياطين تزعق في حنجرتها:
- ما بك تسيرين كالبهيمة!.. أين عقلك؟.. سأعرف كيف أتصرف معك حالما أشفى من مرضي..
اعتادت على تأنيب السيدة وتعاليها، تصمت وكأن الأمر لا يعنيها، فالمال الذي ترسله إلى أمها آخر الشهر يستحق التضحية..
لكن الأمر اختلف هذه المرة، ربما فاض رماد روحها من أعصابها حين قارنت بين أوجاع البشر..
انتفضت حواسها مرة واحدة وعلا صوتها ثائراً منتحباً:
- أخبرتك أن أمي مريضة جداً وحالتها سيئة، ألا تشعرين بـي؟.. ألا تقدّرين مشاعري وحرقتي عليها وأنا بعيدة عنها!
- وما شأني إن ماتت أمك أم عاشت؟.. أنت تتقاضين أجرك وعليك عدم التقصير في عملك، هذا كل ما يعنيني.. اسمعي: أنا لا أطيق الوجوه المكشّرة، إياك أن أراك تبكين أمامي.. أفهمتِ يا وجه البوم؟..
انحنت على يد السيدة تقبّلها، تتوسّلها السماح لها بالاتصال ببلدها..
- ومن قال لك إن بيتي سنترال؟.. الاتصال إلى بلدك مكلف، وحسب اتفاقنا لك كل شهر اتصال ومنذ أيام اتصلت.
يبدو أن استجداءها أصاب السيدة بمزيد من الغرور فأمعنت في إذلالها إشباعاً لغطرستها..
- كلكن خادمات كاذبات مخادعات، أعرف أساليبكن هذه، يبدو أن لديك حبيباً هناك تريدين أن تسمعي غزله بجمالك الفتان..
اذهبـي إلى عملك وإياكِ الاقتراب من الهاتف..
الهاتف لم يتوقّف عن الرنين طوال اليوم للاطمئنان على السيدة، يختلج قلبها مع كل اتصال صارخاً: "أمي" ويعود خائباً، الاتصال المنتظر لم يأتِ..
ولّى النهار، وهذا الليل يطرد النوم من عينيها بثقل سكونه، يكاد الفجر أن يبزغ، وهي على بركان الترقّب تنتظر...
الفجر كان في آخر لحظات ولادته، الساعة تقارب الخامسة حين رن جرس الهاتف، رفعت السماعة بلا وعي منها:
- أمي، كيف حالك أمي؟!...
على الجهة الأخرى سمعت صوت والدتها، واهياً متقطعاً تلفظ الكلمة على دفعات:
- أنا بخير يا ابنتي، انتبهي إلى نفسك، أنا ذاهبة إلى راحتي الأبدية، قد تكون المرة الأخيرة التي أكلمك فيها... تكلمي يا ابنتي، كل ما أطلبه قبل موتي هو سماع صوتك.

- لن تموتي يا أمي.. لن تتركيني!..

قفز قلبها إلى سماعة الهاتف يحث أنفاس أمها اللاهثة إلى مزيدٍ من الكلام لينبض.

- لا تبكي يا ابنتي اسمعي جيداً ما سأقوله لك.

فجأة قطع كلام أمها صوت سيدة المنزل التي أيقظها رنين الهاتف.. قاطعاً عليها نومها:

- يا لكم من بشرٍ لا تفهمون! ولا تميّزون! أهكذا تزعجون الناس؟ هل أصبح المنزل ملكاً لأهلك تتصرفين كما تشائين، اتركي الهاتف من يدك.

حاولت السيدة أخذ السماعة بالقوة، ولكن أي قوة ستستطيع أخذ روحها من يدها!

بيد تحاول جاهدة تقريب السماعة إلى أذنها وبالأخرى تدفع السيدة عنها.. صارخة من أعماق روحها الباكية دعيني أكلم أمي.. لا تحرميني من صوتها.. أمي.. أمي.

استطاعت دفع السيدة عنها، فسقطت على الكنبة، حاولت الاستفادة من هذه اللحظات: هللوو هللووو... المكالمة انقطعت، لا شيء سوى صمت الموت.. فقد كانت السيدة قد أقفلت الخط.

بقيت متجمّدة في مكانها، يدها على أذنها حيث كان صوت أمها منذ لحظات.

"آه يا أمي لو أن الصوت قابل للعناق"..

بكت بحرقة.. لو أن هذه البحار التي تفصل بينها وبين أمها دموع، ما كانت لتكفيها...

ارتفع رنين الهاتف من جديد، كانت لا تزال مسمّرة في مكانها... لم يكن صوت أمها هذه المرة، كان صوت جدتها ينتحب.. تخلّلته كلمات مريعة:

- ماتت أمك، ارتقت روحها إلى السماء حين كانت تحدثك على الهاتف!.. ذهبت أمك إلى الأبدية بجرح عميق، كنت بجانبها وهي تكلّمك، تناهى إلى سمعها ما جرى بينك وبين السيدة.

سوط من نار لا تطفئه دموع جلد روحها، لم تصرخ، لم تبكِ، حملت وجه أمها الميت في حواسها المشتعلة وانطلقت كالسهم إلى غرفة السيدة، كوحش جائع، أمسكتها بشعرها، ضربتها بجنون، بكل ما في داخلها من براكين عذاب متأجّجة.. كانت تضربها وتصرخ:

- أعيدي لي صوت أمي.. أريد صوت أمي..

موتي أيتها القذرة، موتي كي ترقد روح أمي بسلام، لن أدعك حيّة تتمتّعين بحياتك، فالحياة ليست لأمثالك أيتها السارقة القاتلة..

* * *

في السجن تعيش حزنها المجنون، ألقي القبض عليها بتهمة الشروع بقتل السيدة، والتسبّب لها بعاهة دائمة...

حليقة الرأس "من عادات بلادها أن تحلق المرأة شعرها لأنه أغلى ما تملك عند موت إنسان عزيز تعبيراً عن الحزن". تضرب وجهها، تلطم صدرها بوحشية، وكأنها تنتقم من ظلم الحياة.

كلما رأت رجل أمن داخل السجن تتشبّث بثيابه باكية:

... أعيدوا لي صوت أمي!!

ابنة المطر

اشتدت غزارة المطر.. نظرت إلى ساعتها، إنها تقترب من الثامنة..
نصف ساعة تفصلها عن موعدها..
يا لها من مصادفة أن يتزامن موعد أمسيتها الشعرية مع موعد العاصفة العاتية المتوقعة هذا المساء!..
أمامها متسع من الوقت، عشر دقائق وتبلغ المكان "ليت هذا المطر يهدأ قليلا"..
إنها أمسيتها الأولى بعد صدور ديوانها الشعري الأول، وفرصتها لإثبات ذاتها في عالم الإبداع والشعر.
بدأت العاصفة تشتد.. حقاً إنها هوجاء!..
الرياح تكاد أن تقتلع الأشجار على جانبـي الشارع، السماء تلقي المطر دفعة واحدة، وكأنها تريد أن تنتهي من فصل الشتاء دفعة واحدة هذه الليلة.
تحول الشارع نهراً، الرؤية ساءت، والسيارة أصبحت تسير بصعوبة..
تذكر جيداً علاقتها الطفولية بالمطر.. كانت بعمر الطفولة، لم تكن تكف عن البكاء أيام الشتاء حتى يخرجوا بها لتشاهد الطقس في الخارج، تفتح كفيها الصغيرتين لتتساقط فيهما حُبيبات المطر... تنتفض فرحاً وتضحك، تضحك.. حتى لقبت بابنة المطر..
ولكنه الآن يهطل في قلبها، يغيظها، يخنقها، يغرق آمالها.. "مهلاً أيها المطر، تعرف كم أعشقك، لطالما تمنيت أن تتخدّر حواسي بقية الفصول لأعيش فقط فصل الشتاء.. اهدأ قليلاً أرجوك!.. ودعني أصل إلى موعدي بسلام!
أجابتها زخّات من حبات "البَرَدْ" الكبيرة الحجم، تساقطت بغزارة، ضربت زجاج سيارتها كرشقات حجارة، كادت أن تحطمه... يا للمصيبة!.. تعطلت "مسَّاحات" الزجاج أمام كثافة "البَرَدْ"، وبات السير مستحيلاً.
اقترب وميض البرق، خطوط عمودية من النار تستعر أمامها، تكاد تخطف بصرها، وكأن السماء تحترق وتُسقط حممها على الأرض..
المشهد أعاد إلى ذاكرتها ما سمعته من حكايات مخيفة عن الصواعق وكيف تحرق جسد الإنسان وتذيبه إن لامسته.. إذاً ستضربها الصاعقة وتحترق مع سيارتها!..
شعرت أنها وحيدة في بقعة نائية تحيط بها أنياب الوحوش.. أصابها الرعب، فانطلق صراخها مع وميض البرق ليعلو فوق دويّ الرعد..
خبّأت رأسها في المقود.. "ليتني سمعت كلامك يا أمي!"..
العاصفة تزداد شراسة، ليس أمامها سوى الهروب، ستجد جداراً تحتمي خلفه.
ما كادت تفتح باب السيارة حتى هاجمتها رياح ماطرة مجنونة، فشلت

محاولتها لفتح المظلة، يد الريح كانت بالانتظار، قذفت بالمظلة بعيداً.
الأرض مكسوة بطبقة من حبات "البَرَد"، حذاؤها ذو الكعب العالي الذي لم تتقن يوماً انتعاله، لم يساعدها على السير، فانزلقت وسقطت في نهر الشارع.
صرخت بأعلى صوتها..
لم تشعر إلاّ ويدان قويتان ترفعانها عن الأرض، تشبّثت بهاتين اليدين، عادت روحها إليها.. وجدت نفسها داخل صيدلية قريبة، ترتجف برداً وألماً.. الماء الموحل يسيل من رأسها حتى أخمص قدميها.
نصف نهار وهي في جدال مع المزين حتى خرجت راضية عن تسريحتها، الماكياج على وجهها أصبح خليطاً من الألوان كلوحة رسمها طفل مشاغب..
انتهى كل شيء.. لا أمسية، لا وقفة على المنبر، لا أحلام... انفجرت بالبكاء..
قال المنقذ وهو يخلع معطفه ويلقيه على كتفيها:
- اهدئي يا سيدتي، أنت ترتجفين كثيراً، هل أصابك أذى؟
حدّقت إليه بخجل:
- شكراً لك.
- أنا طبيب وأستطيع مساعدتك.
- يدي تؤلمني.
مدّت يدها إليه، الدم يسيل من معصمها. أمسكها معايناً مكان الإصابة:
- لا تخافي، رضّة بسيطة، وهذا الجرح سطحي.
لا تعرف لماذا تأمّلته طويلاً وهو يضمّد جرحها، ولا كيف تسلّل كل هذا الدفء الذي اجتاح روحها من لمسة يده!
سألها:
- عذراً على السؤال.. كيف تخرجين في هذا الجو العاصف؟
- كنتُ على موعد مع مناسبة مهمة جداً في حياتي..
- وأنا أيضاً كان عندي موعد مهم، وهو حضور أمسية شعرية لشاعرة سحرني ديوان لها صدر مؤخراً اسمه "ابنة المطر"... احتميت من العاصفة هنا عند صديقي في الصيدلية.
وأردف ضاحكاً: وأيضاً هرباً من البرق والرعد الذي يرعبني منذ الصغر.
اتّقدت فرحاً.. وكأن كلماته بحر من أمسيات جميلة ألقتها وستلقيها.
- حقاً إنها مصادفة غريبة!
أخبرته قصتها مع الأمسية والعاصفة.
أجاب دون أن يرفع عينيه عن وجهها وعينيها:
- يا ابنة المطر كم هذه العاصفة كريمة معي، ما أسعدني بلقائك.
رافق قلبُها صوتَه وعينيه... تمنت لو يتكلم أكثر، نسيت ما هي فيه، همست في سرّها: الأمسية!.. وماذا يعني إنْ لم أذهب إليها؟
يبدو أن العاصفة تعبت وبدأت تأخذ قسطاً من الراحة.. قالت:
- شكراً على كل شيء سأحاول العودة إلى منزلي.

- لا بل ستكملين طريقك إلى الأمسية.
- هل يعقل هذا؟.. سأكون محط سخرية.
- ابنة المطر لا تلويها عواصف ولا أعاصير.. اجعلي من الحادثة محطة فرح، فليكن لهذا المطر نبتة غريبة مميزة في أرض حياتك الأدبية.. ستكتب عنك الصحافة بعنوان عريض "المطر يغرق ابنته"..

ضحكت من أعماقها لظرف كلماته..

دواوين شعر فاح عطرها في أنحاء مخيّلتها..

- هيا يا سيدتي.. الساعة الثامنة والنصف الآن، ما زال الوقت أمامك..

هناك من تحدّوا العاصفة وجاؤوا للاستمتاع بسحر قصائدك الشتوية.. فلا تخذليهم.

* * *

اعتلت المنبر بكل جرأة دون خجل بمظهرها الغريب.. ومعطف الطبيب ما زال على كتفيها. دوى صوتها في القاعة قوياً ناعماً:

- المطر يهديكم كل حب وتحية.. أبى إلاّ أن يشاركني فرحتي بحضوركم.. استوقفني وأنا في طريقي إليكم، غمرني، قبّلني.. عبث بشعري، بثيابـي.. اللوم عليه إذاً في تأخري عنكم..

ضجت القاعة بالتصفيق، ساد جو من المرح، انهالت كلمات الإعجاب لظرف هذه الشاعرة الجميلة وخفة ظلّها..

ولكنها لم تكن ترى سواه.. ولا تسمع سوى تصفيق يديه التي كانت أول وآخر من يصفّق..

وحدها نظراته كانت تنهمر على أرض قصائدها دافئة كشتاء ربيعي.. فتزهر إحساساً ساحراً في صوتها وكأنها تقرأ له وحده.

بسرعة البرق الذي تركته هناك، في الشارع، لملمت أوراقها على عجل وهي ترقبه كي لا يغيب عن عينيها.

على باب الخروج كان ينتظرها، انغرس صوته في أذنيها:

- ما رأيك يا ابنة المطر بفنجان شاي دافئ؟..

لم تنتبه لسرعة إجابتها عن سؤاله:

- طبعاً.. أحتاج إليه جداً بعد كل هذا البرد..

سأستعيد دمي..

قالت القابلة وهي لا تزال منهمكة في الكشف عليها:

- الجنين بعمر الثلاثة أشهر تقريباً وبحالة جيدة.

"الجنين بحالة جيدة"!..

أرعبها ما سمعت، كانت تأمل أن يكون الجنين ميتاً في بطنها بعد محاولات عدة لقتله.

قامت بتنفيذ ما علق بذهنها من أحاديث النسوة أثناء صباحيات القهوة عند أمها.

ضرب على البطن، قفز من أماكن مرتفعة، حمل أشياء ثقيلة، شرب مغلي البقدونس.. كل هذا لم يأتِ بنتيجة؟!

رفعت كفيها عن وجهها تاركة لدموعها حرية التعبير.. كانت تخبئه خجلاً من الدكتورة..

إنها المرة الثانية التي يرى أحدٌ هذا المكان الحميم من جسدها:

* * *

- هيا أيتها العروس المجنونة.. انتهيت من تنظيف ساقيكِ، قطعتِ أنفاسي من التعب.. بقيَ علينا تنظيف تاجك، لم تفهم إلا بعد أن مدت عمتها يديها.. اهدأي ودعيني أكمل عملي!..

- كفى.. لا أريد.. لقد سلختِ جلدي.

أجابت عمتها وهي "تدعك" بيديها كتلة كبيرة من عقيدة السكر:

- ساعديني، ستتألمين قليلاً، ولكنه سيصبح ناعماً كالحرير.

هربت من أمام عمتها، تشد ثيابها لتخبئ ذلك السر الكبير الذي ارتهنت حياة الفتاة عليه.. إنه العيبة الكبرى أن يمس.. إنه بيت العفاف.. فكيف تسمح لهم بمسه أو النظر إليه، هكذا علّموها وأوهموها، وهنّ الآن يفعلن العكس.. دوّى صوت والدتها مؤنباً:

- هيا يا بنت، ما كان ينقصني إلاّ دلعك.. دعي عمتك تكمل تنظيف جسدك من الشعر، أنت عروس، أتريدين أن تفضحينا أمام العريس!

- إنه جسدي أنا.. لا شأن لأحد به.. قلت لكم لا أريد الزواج ألا تفهمون؟!

انتفضت عمتها غضباً:

- اخرسي أيتها الوقحة، ليس عندنا بنات يرفعن رؤوسهن ويقلن لا.. يبدو أن زوجة أخي لم تحسن تربيتك!

أجابتها ساخرة وقد ضاقت بتسلّط عمتها التي تريد ملء فراغ حياتها بإحصاء

أنفاس العائلة:

- لماذا لا تتزوّجينه أنتِ أيتها العانس!..

صرخت بها والدتها وهي تستشيط غيظاً وغضباً من وقاحة ابنتها:

- من أين أتيت بكل هذا الفجور؟.. قذرة.. تحتاجين إلى تهذيب.. رأسك العنيد أصبح بحاجة إلى تكسير. يبدو أن ما تقرأينه من كتب ومجلات أفسد عقلك.

ضربت العمة كفًّا بكف:

- يا سلام.. وتقرأ قصص العشق والغرام أيضاً!.. كيف تسمحين لبناتك بهذا الفلتان يا أم البنات؟..

- أم البنات!.. أم البنات..

أحنت الأم رأسها خجلاً لتداري نقصها، ووصمة العار على جبين رحمها التي لا تنجب الصبيان. قالت وهي تبتلع الإهانة في محاولة لاسترضاء أخت زوجها:

- منعتها يا ابنة عمي، أحرقت لها الكتب والمجلات، ولكن لا أعرف من أين تأتي بغيرها وتقرأ سراً عني..

هذه البنت مسكونة بالشياطين، لم أعد أقدر عليها.. عملت لها "حجاباً"، فسخرت مني ورفضت ارتداءه..

منذ صغرها وتصرفاتها كالصبيان، شعرها القصير، ثيابها، مشيتها، مشاكلها في المدرسة، قوتها الجسدية.. عنادها، وعدم خوفها من أي شيء.. غرامها بكل أنواع الرياضة، فهي دائمة القفز كالسعادين.. لا ينقصها سوى بعض الزيادات في جسدها لتصبح ذكراً.

- أعرف يا زوجة أخي، هذا نذير شؤم على بيتنا.

- وكيف عرفت يا أمي أن الكتب والمجلات التي أقرأها تفسد الأخلاق ما دمت لا تعرفين القراءة؟

بلغ الغيظ ذروته لدى الأم فصرخت بها:

- قطع الله لسانك، ليتك تموتين لأرتاح منك أيتها الوقحة.. ألاَ يكفيني ما عندي من مصائب، حتى أرسلك الله لي مصيبةً تزيد العدد. سأخبر والدك بكل شيء، لن أصمت بعد الآن.

- أخبريه.. فليضربني ما طاب له، منذ رفضت الزواج وهو يضربني.. لا يهمني.

قالت العمة:

- لا!.. لا يا زوجة أخي، تعرفين طباع زوجك، سيكسر عظامها.. وقد يتسبب لها بعاهة كما فعل بأختها، دعوه في همومه.

ألا يكفيه ما يعاني من حسرة وحرقة قلب على صبـي يزين بيته!.. هذا أخي الأكبر بيته مليء بالرجال، كل ذريته صبيان..

كان من حقه أن يتزوج ثانية ولكن شهامته وأخلاقه منعاه من ذلك.. أخي رجل ولا كل الرجال، ولو غسلتِ قدميه وشربتِ ماءهما لما أوفيته

جميله عليكِ.
وأردفت بانفعال:
- دعي هذه المصيبة لي وأنا كفيلة بإعادتها إلى عقلها.
قالت الفتاة ضاحكة وهي تهزأ من كلامهما:
- منذ وعيت على الحياة وأنا لا أسمع سوى النحيب والحسرة على عدم إنجاب أخ لنا..
ما ذنب أمي؟.. بماذا يكون الصبـي أفضل مني؟.. أنا إنسانة مثله، أستطيع أن أتعلّم وأعمل، وأكون مفيدة للمجتمع.
تصفيق قوي من الأم والعمة مصحوب بنوبة ضحك:
- هذا ما كان ينقصنا.. وتعرفين إلقاء الخطابات أيضاً!

* * *

صوت القابلة يرتفع:
- سألتك كم عمرك..
- عمري أربعة عشر عاماً وعدة أشهر..
- سأصف لك دواءً مقوّياً..
- لا أريد دواء، أريد التخلّص من الطفل..
- ماذا تقولين؟.. ألستِ متزوجة؟..
- لا..
- من فعل بك هذا؟
- رجل لا أعرفه اغتصبني.
- يجب أن تخبري أحداً من أهلك بالأمر.. وفتح تحقيق بالحادث.
قالت وهي تضغط على بطنها بشدة:
- أرجوك لا وقت لديّ، أنقذيني من مصيبتي.
- أنت صغيرة وعملية الإجهاض خطر على حياتك..
قد تتعرضين للنزيف، لا يمكن أن أجري لك العملية دون وجود أحد من أهلك.
- ومن قال لك أني أريد حياتي؟
انفجرت ببكاء مرير:
- أقبّل قدميك سيذبحونني إن عرفوا بأمري.
تناولت حقيبتها، وأخرجت بعض المال..
- خذي.. كل هذا المال لك.. خلعت سلسلة ذهبية من عنقها معلّقاً فيها اسمها.. ثم خاتماً من إصبعها، خذي هذا أيضاً.
انفرجت أسارير القابلة لرؤية المال والذهب، نظرت إلى السلسلة وهي تزدرد لعابها:
- اسمك حياة؟..

- نعم.. ولكن سيصبح اسمي "موت" إن خرجت من هنا والجنين في بطني.
- ولماذا انتظرت كل هذا الوقت؟
- لم أكن أعرف أنني حامل.. لا أعرف بهذه الأمور.
- إذن ستتحمّلين كامل المسؤولية.. حال خروجك من هنا.. لا أعرفك ولا تعرفينني.. أفهمتِ!..
- أقسم لك على ذلك بكل الكتب السماوية..
- هيا اخلعي بقية ملابسك وتمدّدي..

لا تخافي سيتم الأمر خلال عشر دقائق. سأخدّرك، لن تشعري بالألم.

ابتسمت في سرها، اكتشفت أنها تتقن الكذب.

شهقت القابلة:

- حياة!.. ما هذا الذي على جسدك؟.. آثار ضرب واغتصاب.. أي وحش فعل بك هذا؟..

بماذا تجيب؟..

إن قالت لها الحقيقة ستمتنع عن إجراء العملية.. هل تقول لها إنه ذلك الرجل الغريب الذي أسكنوها في بيته عنوة باسم الزواج!..

وأنها حامل منه نتيجة الاغتصاب!..

والمال الذي دفعته لها ثمن الحلي التي قدمها لها وقت الخطبة، وثمن نصف دزينة من الأساور الذهبية قدمها لها أهلها هدية عرسها.

قالت بسرعة:

- ضربني والدي لأنني خالفت أوامره.
- ولكنها آثار اغتصاب! يبدو صدرك وكأن أنياب وحش نهشته!

* * *

أنت حيوان بشع!.. قالت له وهي تلملم جسدها العاري المهشّم.

لهاثه ملأ الغرفة، رائحة عرقه أزكمت أنفاسها.. أشعل سيجارة، على فمه بقايا من دمها ولحمها، نفث الدخان باتجاهها، اشتمَّت رائحة لحمها المسلوب، زمجر:

- أنا حيوان أيتها الساقطة!.. سآخذك عنوة لحظة أريد.. فأنت ملكي، ولي كامل حرية التصرّف بك..

ثم ابتسم كاشفاً عن أنيابه، متلمّساً مكان ذكورته: أنا رجل يعشق هذا النوع العنيف من الجنس، صراخك يثيرني.

- حيوان..
- سأجعلك تندمين وتسجدين على قدميّ ذليلة، طالبة الرحمة،

فأنا الحاكم بأمرك على هذه الأرض.. أتفهمين!!
آلام روحها وجسدها تدفعها إلى الصراخ، ولكنها لم تبكِ ولم تئن.. البركان في دمها أحال حنجرتها رماداً..
اعتادت هذا الاغتصاب اليومي، هذا الذبح اليومي.. كل هذا العذاب والتنكيل بمباركة أهلها ومن حولها!..
حين اشتكت لأمِّها قالت لها بدهاء:
- افرحي أيتها الغبية، ما يفعله زوجك دليل حبه الشديد لك..
إياك أن تعارضيه في ما يريد، من تعارض زوجها وكأنها تكفر، الله سيحاسبها..
هذا حقه الشرعي يا ابنتي.. فليهنئك الله بهذا الزوج المحب.

* * *

خَدر لذيذ سرى في شرايينها، حقنة المخدر الموضعي تغزو خلاياها، عزلت رأسها عن جسدها.. راق لها هذا الإحساس "جميل هذا الهدوء في رأسي" غالبها النعاس، أغمضت عينيها وغادرت إلى هناك حيث الحقل البعيد:
طفلة، لم يكتمل من نضجها سوى رحمها وأنوثتها.. تلهو بلعبة الحياة والموت.. طفل جميل لا تعرف كيف وصل إلى أحضانها..
نظر إليها بعيني عجوز، نظرت إليه كحجر..
رأته سكيناً تنغرس في صدرها..
تلمّظ بفمه، تحسّست الحليب المسموم.. ملأوا به عنوةً ثدييها..
جذبته إلى صدرها:
تعال سأطعمك، أعرف أنك جائع لرضاعة دمي.. كُلْ يا قاتلي البريء!..
وضعت حلمة ثديها المتدفق في فمه، ضغطت بكل ما بداخلها من سعير الحياة..
تدفق الحليب على وجهه، غمر عينيه، توقف عن الرضاعة، لم يتحرك، لم يصرخ..
تغير لون وجهه "من أين أتيت بكل هذا اللون الأزرق!.. اعذرني نسيت أن وجهك الآن نحو السماء!".
داعبت فمه:
- أوغ، أوغ..
تعرف أن الأطفال يبتسمون لهذه المناغاة، ما بال طفلها صامت هكذا!
رفعته عن صدرها، تدلى الرأس الصغير، تهاوت الأطراف.. قطعة لحم مترهّلة.
فتيات صغيرات كنّ في الحقل يخيّطن أكفانهن.. استعداداً ليلعبن لعبة "بيت بيوت"..
ساعدنها، لففنه بخرق من ثياب أولادهن النائمين في حلم معلَّب.
لم تطلق عليه اسماً، لم تبكهِ.. حفرت بأظافرها حفرة صغيرة، وضعت قطعة

اللحم الندية، بدأت تهيل التراب..
أيدٍ طويلة، كثير من الأيدي، امتدت من اللفافة، اتسعت الحفرة، صار الحقل مقبرة، جذبتها الأيدي إلى القاع..

✳ ✳ ✳

صرخة مدوية هزت العيادة..
ارتعبت القابلة:
- ما بكِ، لا تخافي، اهدأي، انتهينا.
قالت متلعثمة من الخوف:
- لا، لم أشعر بالألم.. ولكنه ابني، كان يدفنني حية..
- لا عليك، إنها هلوسات بسبب البنج، ساعة واحدة وتعودين إلى منزلك وكأن شيئاً لم يكن.
تعالي إليَّ بعد شهر ارتق لك غشاء البكارة.. لتتخلّصي من مشكلتك ويصبح باستطاعتك الزواج.
- لا أريد أن أعود عذراء.
- حقاً أنت فتاة غريبة الطباع، إذن انتبهي من حمل آخر، وإياك أن تعودي إليّ مرة أخرى.
- دعيني أرَ ولدي.. فليسامحني ربـي.. كان يجب أن أقتله لأعيش.
رفعت القابلة قطعة لحم مدمّاة بحجم كف اليد:
- انظري إنها بنت.
- هذه البنت.. رأيتها من قبل، هذا الرأس كرأس أختي، ولدتها أمي ميتة..
ضربها أبـي حين تجرأت وقالت له بعد أن أجبرها على إجراء صورة لمعرفة جنس المولود الثامن:
- الجنين بنت، ليس ذنبـي، فكما تزرع تحصد.

✳ ✳ ✳

حملت سرَّها وخرجت من العيادة، لم تنتظر لتأخذ قسطاً من الراحة بعد العملية..
مساحة الوقت لديها ضيقة وعليها العودة إلى البيت بسرعة قبل أن يكتشف زوجها أنها خرجت من البيت دون إذنه.. لا تريد للمخطّط الذي رسمته في دماغها الفشل.
سارت تتهادى، قدماها بالكاد تحملانها، الدوار احتل رأسها، "هيا يا حياة لا تضعفي، افرحي بانتصارك على الظلم!.. أنتِ الآن حرة..

حطمتِ القيود بدمك!.. اقتلعت بذرة الموت من رحمك، لا شيء الآن يربطك بمن زرعها فيها...

* * *

تهاوت فوق رصيف الشارع.. أصوات المارة ترتفع:

- اطلبوا الإسعاف.. الفتاة تنزف..

الخوف من افتضاح أمرها دفع فيها بعض القوة، قالت:

- اتركوني، ابتعدوا عني.

ابتسم الوجه الشاحب.. أطبقت جفونها على عينين بلا لون.. ضجيج هائل يطرق جدران ذاكرتها:

"زغاريد، موسيقى صاخبة، حلقات رقص، صراخ، عويل.. الكل يقفزون كالمجانين بثياب مبهرجة.. ماذا يحدث؟..".

- لِمَ كل هذا الاحتفال، وكل هذه الطقوس.. وهذه الزينة؟..

أخبروها أنه يوم عرسها..

كل هذا المهرجان لأن والدها سيرسلها إلى بيت رجل غريب تشعر بالغثيان كلما نظرت إليه؟

وصل العريس محمولاً على الأكتاف إلى حيث أجلسوها بانتظاره.

حدّق إليها فاغراً فاه: "كل هذا الجمال لي!".. شرد خياله في الكتفين العاريتين والعنق العاجي، داعب شاربه، استيقظت ذكورته.

أخواتها الثماني وقفن يأخذن الصور معها.. اصطففن ملتصقات بعضهن ببعض، ألعاب جميلة في واجهة عرض زجاجية برسم الراغبين في الزواج..

فتاة رائعة الجمال على كرسي متحرك اقتربت منها قائلة:

- مبارك يا أختي.

عانقتها وأجهشتا بالبكاء:

- آه يا أختي الحزينة..

غضب دفين اجتاحها.. تجسّدت أمامها تلك الحادثة الرهيبة.

اكتشف والدها أن أختها تحب شاباً من الحي وتتبادل الرسائل معه، كانت بعمر الرابعة عشرة..

أقفل باب الغرفة عليها، ضربها حتى الموت، اقتلع شعرها، رأت بعينيها شعر أختها بيد والدها.. "سأقتلك يا عاهرة، بعد الآن لا مدرسة ولا خروج من البيت".

غافلت الجميع وألقت بنفسها عن سطح البيت، انكسر عمودها الفقري على حافة بركة الماء.. لتتوقف حياتها على الكرسي المتحرك..

قالت الفتاة وكأنها تنعي روحها المعذبة:

- افرحي يا أختي.. على الأقل ارتديت فستان عرس، أعرف أنك لا تريدين هذا الرجل، ولكنه أفضل من رؤية والدك!.. فيما أنا سأقضي عمري

على هذا الكرسي وأموت عليه كل يوم حين أراه أمامي..
ثم أردفت ضاحكة كي تداري عن أختها بعض الحزن:
- لا تنسي يا حياة قبل ذهابك أن ترميني بباقة الورد التي في يدك، يقولون إنها تجلب العريس والحظ..
اقترب منها والدها وأخوه، تأبّطا ذراعيها كل من جهة..
إنه موعد انتقالها إلى قدر مرسوم، ومصير مجهول..
سارا إلى جانبها مرفوعي الرأس، خروجها بالأبيض شهادة شرف على تربيتهما الصالحة لبناتهن اللواتي يتزوجن بعمر صغير "بنت البيت بتنفق بسرعة"..
أصعداها إلى سيارة مزينة..
اقتربت والدتها لوداعها، هامسة لها بانفعال:
- عيب عليكِ.. اذرفي دمعة على الأقل على عيون الناس ليقولوا إنك حزينة على فراق أهلك.. فالعروس تموت من البكاء لحظة خروجها من بيت أهلها..
- بكيت كثيراً قبل أن أخرج، ولكنك لم تشاهدي دموعي يا أمي.. الحنون.
لم ترفع يدها لعناق والدتها.. نظرت إليها بحقد "لو كنت أمي حقاً لما تخليتِ عني".
تقدم والدها قائلاً للعريس:
- ابنتي أمانة عندك، أنت الآن حامي عرضها وشرفها.. ثم أردف هامساً بنصيحة غالية لصهره: اللحم لك والعظام لنا.
- طبعاً يا عمي.. ونعم التربية!..
اقترب ليقبّلها مودعاً.. أبعدت وجهها..
"الآن تريد تقبيلي أيها الظالم المتغطرس!.. وكل هذا العمر لم أعرف من فمك إلاّ اللعنات والشتائم".
سارت سيارة العروس يتبعها موكب كبير من سيارات الأهل، والأقارب، والمدعوين.
التصق العريس بها، احتضنها بقوة، بدأ بتقبيلها.. دفعته عنها بعنف:
- اتركني.. ابتعد عني، ما بك يا هذا؟.. عيب عليك.
زجرتها حماتها الجالسة في المقعد الأمامي:
- يا ويلي كيف تقولين هذا لعريسك، البنت المؤدّبة لا تتصرف هكذا مع عريسها.
- لا شأن لك بالأمر.. أنا غير مؤدّبة، أعيدوني إلى أهلي..
دُهشت المرأة.. كادت تفقد أعصابها، ماذا يحدث؟.. عروس ابنها تكلمها بهذا الشكل!..
- اخرسي يا..

قطع أخو العريس وهو يقود السيارة، كلام والدته قائلاً:

- الفتاة صغيرة يا أمي، لا تعي هذه الأمور بعد.. وأنت يا أخي انتظر ستصل إلى بيتك وتفعل ما تريد.

وصلت إلى بيت الزوجية، وجدت نفسها وكأنها وحيدة في غابة أمام كوخ "الست الغولة"..

أفقدها الخوف رشدها، انفجرت بالبكاء.. لا تتركوني لوحدي مع هذا الرجل..

أقفل الباب.. ومن دون كلمة أو مقدمات انقض عليها كوحش جائع أفلت من عقاله.

رماها فوق السرير.. صرخت، سدّت أنفها، رائحة كريهة تنبعث من السرير، دماء متخثّرة تراكمت في قاع الفراش.. كل نساء الأزمنة السوداء مررن من هنا.

هربت منه.. أمسك بها ولعابه يسيل على ذقنه.. وكأن غريزة الحيوان فاضت في شراينه، ففقد السيطرة عليها.

- أنتِ ملكي.. ويجب أن آخذ حقي.
- لا، لست ملكك ولا ملكاً لأحد..

قهقه عالياً:

- أنا الآن زوجك، أنسيت ما قال والدك.. اللحم لي والعظام له.
- إن اقتربت مني سأقتلع عينيك.

معركة شرسة، استمرت حتى الفجر، لم يتمكن من الوصول إلى مبتغاه.

جلست في المطبخ بانتظار الصباح الذي أتى مع صوت زغاريد وطرقات على الباب.

إنه صوت عمتها!..

كانت أمها وحماتها وأخوات العريس وزوجة عمها وخالتها.. يحملون الطعام والحلوى.. إنها صبحية العرسان.

أتوا ليكونوا شهوداً على عذرية العروس.. ورجولة العريس.

وقف الجميع مشدوهين أمام منظر مريع..

العروس ما زالت في فستان العرس ولكنه ممزق، شعرها مبعثر، عينها متورّمة تحيطها هالة زرقاء، آثار كدمات وعض على وجهها وعنقها والأماكن الظاهرة من جسدها..

تأمّلتهم ملياً، لم تشعر أنها بحاجة إلى البكاء، لمن تشكو!.. لمن تظهر دموعها!.. شعرت بحاجتها للاختباء بصدر ما، لم تجده بينهم.. فبقيت متجمدة في مكانها كتمثال مكسور..

العريس عيناه حمراوان تكادان أن تخرجا من مكانهما.. آثار أظفار تركت خدوشاً عميقة، وخطوطاً دامية على وجهه وصدره ويديه.. وكأن قطًّا بريًّا حاصره.

طأطأ رأسه خجلاً وهو يخبرهم ما فعلت به عروسه المجنونة..

صعقت والدة العريس لما حلّ بابنها، ضمّته إلى صدرها وهي تزمجر:

- لماذا خدعتمونا؟!.. لِمَ لم تخبرونا أن ابنتكم مريضة بعقلها؟.. من

تفعل هذا ليست ابنة بيت، بل ابنة شارع.. اللعنة عليكم.. نسَبٌ لا يُشرَّف.

جنّ جنون أم العروس، ارتجفت مفاصلها هلعاً، لما سمعته من إهانة، بسبب ابنتها، فصبّت جام غضبها عليها..

- ستجلبين لنا العار والفضيحة.

أفلتت من أمها واتجهت صوب الباب تريد الهرب.

- دعوني.. لا أريد البقاء في هذا البيت.. كلكم مجرمون، لم يرَ أحد منكم ما حلّ بـي.. كل ما تريدونه رؤية دم عذريتي!.. أوَليس ما سال من جسدي ووجهي هو أيضاً من دمي!.. أليس ما تخثّر تحت جلدي هو من دمي!..

جرجرتها عمتها بشعرها إلى الداخل..

- لا كنت ولا عشت وأنا أرى ما أرى.. ستجلبين لنا العار يا سافلة.. هل أفرحك ما قالته والدة زوجك؟.. معها حق، كل هذا بسببك..

والله لأجعل والدك يشرب من دمك.

ارتفع نحيب الأم وهي تلطم صدرها:

- تريدين ترك بيتك صباحية عرسك؟..

يا للفضيحة التي سترافقنا إلى القبر!!..

ماذا سيقول الناس؟.. أعادوها إلى أهلها لأن العريس اكتشف أنها ليست عذراء!.. ستقضين على مستقبل أخواتك يا مجرمة.. من سيتزوج منهن بعد ذلك!.. ليتك تموتين ونرتاح منك.

- قلت لكم لا أريد الزواج.. لم تسمعوني، فعلتم ما تريدون وعليكم تحمُّل النتيجة.

وصل والدها، الشياطين تتراقص في عينيه الحمراوين ولو باستطاعته تقطيعها وأكل لحمها لفعل فوراً:

- اسمعي.. لم يخلق بعد ولن يعيش من سيلوّث شرف العائلة، تعرفين جيداً "أبو البنات!".. لن تخرجي من بيت زوجك إلاّ إلى المقبرة.. ستكونين خاضعة لأوامره.. وإلاّ ليس أمامك إلاّ الذبح.

بعد الاعتذار من أهل العريس وتهدئة النفوس.. اجتماع مغلق تعهّد لها بعده والد العريس أن ابنه لن يمسها إلاّ برضاها.

مرت الليلة الأولى بسلام، لم يقترب منها ولم يكلمها.. اطمأنت في الليلة الثانية فنامت.

أفاقت صباح اليوم التالي.. لتجد نفسها عارية في السرير، والدم يسيل على ساقيها.. فهمت اللعبة، الأوغاد غدروا بها.. تذكّرت أن أمها زارتها في الليلة الماضية، وكانت تعاني من الصداع، أعطتها حبة دواء على أنها تخفف ألمها وتريح أعصابها.

اغتصبها الوحش تحت التخدير..

"افعلوا ما شئتم، يوماً ما سأستعيد دمي".

✳ ✳ ✳

ضجيج في طوارئ المستشفى..
الفتاة في حالة الخطر وبحاجة ماسة إلى الدم.. لا أوراق ثبوتية معها.
قال الطبيب:

- واضح مما على جسد الفتاة أنها تعرضت للاغتصاب، اطلبوا البوليس..

احتلت صورها وسائل الإعلام.. "فتاة مُغتصَبة مجهولة الهوية وُجِدت مرميةً في الشارع".

فايسبوك

عاصفة سجينة فرَّت غاضبة من شراييها، فأقفلت جهاز "اللابتوب" بعنف.
"البلوك" لم يشف غليل خيبتها، فضربت على الجهاز بقوة، وكأنها ترد تلك الصفعة الفايسبوكية التي أطاحت بآمالها وأسقطت الرهان الأخير..
كانت تمنّي النفس باستقرار ودفء عائلي. لتُبعد عن خريفها شر صقيع العمر القادم.
"سألغيك من حياتي أيها الفايسبوك اللعين".
غطت وجهها بيديها، تاركة لدموعها العنان..
تنهّدت من أعماق قلب قاحل طال خواؤه إلى قطرات حب.. أطلقت ما تكدس في روحها اليائسة من حسرة على عمر ضاع هباء.
صديقاتها تزوّجن، كل واحدة منهن تعيش في عالمها الخاص، مع زوجها وأولادها ومناسبات أسرتها.. نادراً ما يتذكّرن وجودها.
قطار الزواج شارف على المغادرة.. ومحطتها ما زالت بلا عنوان..
الذين تقدموا للزواج منها حين كانت في أوجِّ عمرها، لم يكونوا بالمستوى المطلوب، حسب قول والدها.. والشاب الذي أحبته أثناء الدراسة هاجر إلى بلد آخر وانتهت قصتها معه.
وحيدة في بيت كبير، يعصف الصمت في أرجائه، مات والداها، ولم ينجبا غيرها..
نظرت حولها برعب، شعرت بالاختناق، تمنت لو أن بجانبها مخلوقاً يتحرك، حتى لو كان فأراً..
ضاقت عليها مساحة البيت، أطبقت الجدران على صدرها.. سجينة داخل سجن انفرادي.
اعتادت هذا الاختناق اليومي.
تعود من عملها، تجرجر تعب نهار بليد، لا شيء فيه سوى صراخ المخاض لنساء يلدن..
تضيف رقماً إلى مفكّرتها لعدد الأطفال الذين أخرجتهم اليوم من بطون أمهاتهم، وشاركت في إعطائهم صك العبور الحياة..
خمسة وعشرون عاماً على بداية مهنتها كطبيبة نسائية، أصبح لديها قائمة طويلة، طوابير من الأطفال.. "ليتني أمتلك ابتسامة طفل منهم"..
تتقلّص أحشاؤها مع إضافة كل رقم.. تشعر بألم يشبه آلام الولادة.. تشد على بطنها "أما لهذا المخاض من نهاية؟"..
وجدت متنفّساً لها في مواقع التواصل الاجتماعي، أنعشها هواء بحر من البشر من كل الأجناس والمستويات..
أدمنت هذا العالم الافتراضي، وجدت فيه ما لم تجده على أرض الواقع، حيث

لا تحظى من رفاق العمل أو ممّن تصادفهم، بأكثر من تحية وأحاديث عامة..

حين أصبحت في عداد الفايسبوكيين لم تكن تعلم أن الصورة القديمة التي اختارتها لتكون صورة بروفايل الفايسبوك التي تعود لأكثر من عشر سنوات خلت، والتي استطاع "الفوتوشوب" إضافة قناع من الجمال والأنوثة إليها.. ستجعل الرجال يتهافتون على صفحتها كنحل جائع حول قطعة حلوى.

أصبح لديها آلاف الأصدقاء من العالم الافتراضي، وكثير من طلبات الصداقة تقف على عتبة صداقتها تنتظر الإذن بالدخول..

صندوق بريدها متخم برسائل الإعجاب، واعترافات بحب لم يعرفه تاريخ العشاق، فالحب الفايسبوكي سريع كوجبات الدلفري، الكلام بحر، وحنجرة الجهاز معطاء.

غاصت في هذا العالم المتلاطم حتى الأعماق، لم يكتف بملء فراغها، بل تسلّل إلى وقت عملها واحتل زوايا حياتها الواقعية، ليحوّلها آلة مثبتة أمام الجهاز.

مشاعرها الراكدة بدأت تظهر بخواطر شعرية جميلة، هي نفسها تفاجأت بما تكتب..

صفحتها دائمة الحركة، لايكات وتعليقات تكاد أحياناً تربك دماغ الجهاز لكثرتها.. ترد عليها بأجمل العبارات.

أطلق عليها الأصدقاء لقب شاعرة.

وجدت نفسها تسترسل ببعض قصص الحب الافتراضي التي لم تتخطَّ حدود المشاعر الرومانسية.. والاتصالات الهاتفية، مع رفض قاطع للسكايب والصور المباشرة.

التقت كثيراً منهم، سرعان ما كان يتبع اللقاء فتور، ثم "بلوك" بعد أن يكتشفوا أن المرأة المغرية التي تضج حباً وأنوثة في كتاباتها وصورتها وصوتها الهاتفي الدافئ، ليست سوى امرأة خمسينية حادّة الطباع لا تملك من بورصة الأنوثة سوى الاسم..

لتكتشف بدورها أنهم ليسوا أكثر من رجال مصابين بعشق أجساد النساء يتقنون النفاق بحثاً عن متعة عابرة.

كانت تريد حبًّا استثنائيًّا لرجل استثنائي، وعرفته.. كتب بجانب اسمه كلمة "شاعر".. صورة بروفايله لا تتغير، يبدو فيها في الخمسين من العمر، سحرتها قصائده، جذبها حديثه الراقي، ثقافته، طبعه الرومانسي..

لم يطلب منها علاقة جنسية على النت أو موعداً سريعاً لوضع ما بينهما من حب قيد التنفيذ.

سحرها دفء صوته على الهاتف، أحاديثهما الهاتفية كانت تقتصر على السؤال عن الصحة، وأمور سطحية.. وبعض عبارات الدلع السريعة من طرفه.

بدأت تهمل أصدقاءها، وكأن اسمه أصبح الوحيد في قائمة الأصدقاء. اعترف لها بحبه، بادلته الاعتراف.. ملامح وعد بالزواج بدأت تلوح في الأفق.

إذن هو لا يريد علاقة عابرة!
وكان الموعد المنتظر..
وصلت إلى الموعد متأخرة نصف ساعة وهي تلعن العمل.. ولادة مفاجئة أربكتها، لم يتسنَّ لها تحضير نفسها لهذا اللقاء المصيري.
جالت بنظرها على الطاولات بحثاً عنه، ملامحه مطبوعة في مخيّلتها، تعرفه فوراً، ولكنه ليس هنا.
وجم قلبها: "لماذا لم يحضر؟".. هل كان يكذب عليها؟!.."لا مستحيل أن يفعلها".
بسرعة طلبت رقمه، تحفظه كاسمها.. ارتفع رنين هاتف لرجل عجوز يسير على مهل متكئاً على عكازته مر بجانبها، سمعت صوتاً يقول:
- حبيبتي سعاد أنا هنا على مدخل الكافيه، أين أنت؟
تعرف هذا الصوت.. حدّقت إلى وجهه، التقت النظرات..
- أنتَ؟
- أنتِ؟
ظلت ممسكة بالهاتف، تجمّدت الكلمات على شفتيها..
- أهلاً بأميرة حبـي وحبيبتي ونور عيوني.. اعذريني على التأخير يا روح قلبـي.
أمسك يدها رفعها إلى وجهه، قبّلها..
- يا مهجة القلب، القبلة على يدك تعيد الروح إلى الميت.. فكيف إذا كانت على ثغرك لاستفاق كل الأموات وحسدوني عليك.
"ماذا يقول هذا المجنون!.. لا ليس هذا من عرفته.. كيف انقلب هكذا وتحوّل مراهقاً؟"..
اختار إحدى الطاولات وسبقها بالجلوس.
- تفضّلي يا سيدة الإحساس والجمال!..
بقيت مسمّرة مكانها كالمخدّرة، تتأمل فارس أحلامها الموعود.
رجل عجوز يبدو في السبعين من العمر لم يستطع صباغ شعره أن يخفي ما سطّر العمر على وجهه من تجاعيد..
شاربه مصطبغ بالأصفر بسبب التدخين.. أسنانه مهملة ومنسية وكأنها خارج نطاق رأسه، حتى أصبحت صفراء متآكلة.
نحيل الجسد.. يرتدي بذلة رسمية قديمة فضفاضة، خيل إليها أنها بذلة عرسه.
أدرك سبب دهشتها وما يجول بخاطرها فقال غامزاً:
- تبدين يا حلوتي بعمرك الحقيقي أجمل من تلك الصورة القديمة على الفايسبوك..
وصلتها رسالته.. احتارت في الإجابة، ماذا تقول وهي لعبت الدور نفسه مع الآخرين!..

جلست مرتبكة..
- ما بك يا حبيبتي؟!
- لا شيء.
- أعشق المرأة الخجولة، فهي نادرة هذه الأيام.
حدق إليها بنظرة المتيم الولهان:
- سعاد.. حبيبتي سعاد.. أحبك، أحبك، أحبك.
بقيت صامتة.
ناولها "كتيّباً" صغيراً:
- هذا ديواني الشعري، صدر منذ خمسة وعشرين عاماً، لكنه لم يأخذ حقه في الانتشار، الناس لم تعد تميز بين الشعر الحقيقي والكلام الفارغ.
فتحت الكتاب، قرأت أسطراً عدة، اكتشفت عندها لماذا لم يسمع الناس بهذا الشاعر.. تساءلت:
هل حقاً ما يكتبه على صفحته الفايسبوكية من تأليفه!..
أخرج ورقة من جيبه:
- تفضّلي حبيبتي اقرأي ما كتبت لك بدماء قلبـي الجريح بسهام حبك القاتلة، خصيصاً للقائنا الأول.
فتحت الورقة، كلمات غير مفهومة وكأنها خربشات طفل يصل الحروف ببعضها للمرة الأولى..
قلوب كثيرة مرسومة باللون الأحمر موزعة عشوائياً بين الكلمات.
ناولته الورقة وهي تكاد تتمزّق غيظاً من نفسها:
- عذراً أريد الذهاب، لا وقت عندي للقراءة لديّ عمل ضروري.
- تبًّا للعمل، لم أشبع من رؤيتك بعد.
تناول الورقة من يدها المرتجفة وقال بدلع:
- هاتِ يا عمري أنا.. "يقبرو عيوني عينيكي" لا أريد لعينيك أن تتعب بالقراءة، أنا أقرأ عنك.
أخذ يقرأ ويمثل بيديه ووجهه عبارات الغزل والأشواق.. يتطاير الرذاذ من فمه لشدة انفعاله وتأثره بالكلمات..
"ليت هذا المراهق العجوز يصمت"..
سألته:
- هل ما تكتبه على صفحتك من تأليفك؟..
- لا ليس كله من تأليفي، لم يعد لي جَلَد على الكتابة، أختار ما هو جميل وأنشره.
ابتلعت مزيداً من المرارة والغيظ، كادت تختنق، حاولت أن تقول شيئاً ولكن من أين للخيبة التي ضربت حواسها أن تجد غير الدمعة.
لم يتوقّف لحظة عن الكلام، حدّثها عن حبه الذي لم تحظَ به امرأة سواها من

نساء الفايسبوك.. وأنه وجد بها ضالته المنشودة من الحنان الذي يفتقده..
فجأة ارتفعت نبرة صوته لاعناً زوجته الجاهلة التي لا تفهم بالأدب والشعر، والتي هجرته وسافرت إلى أولادها في أميركا..
ثم انتقل باللعنة إلى زوجة ابنه الذي تزوج وسكن معه في البيت والتي لا تطيق وجوده.

- فليذهبوا إلى الجحيم جميعاً.. أنت كل الحياة يا حشيشة القلب.. أنت سعادي وسعادتي.

جاهدت للسيطرة على أعصابها، أرادت الانسحاب ولكنها قرّرت سماعه حتى النهاية لتعاقب نفسها على غبائها.. وليكن درساً للعمر كله.. فكانت تهز رأسها مع استرساله في الحديث كي لا تختنق..
وأخيراً كانت القنبلة التي فجّرها بوجهها حين قال:

- يا عيون عيوني، كفاك صمتاً وخجلاً!..
نحن من الآن قلب واحد، أنا قررت أن أتزوجك، نعم سأتزوجك!..
لا حياة لي من دونك، وأعرف أن لا حياة لك من دوني، أنت قلتِ لي ذلك..
سنتزوج سرًّا يا حبيبتي، هل تعرفين لماذا؟..
كي لا يزعجنا مخلوق على وجه الأرض، سنكون عاشقين إلى الأبد.. سيكون غذاؤنا الحب، نستعيد به ربيع العمر..
نلتقط الفراشات، نقطف ورود الأيام.. ستكونين ملهمتي وعروس شعري. بعد اليوم لن تكوني وحيدة، منزلك سيكون جنّة حبنا، سيمتلئ بنا.. أليس كذلك يا عمري ونور عيوني؟..

انقلبت أمعاؤها، أصابتها رغبة قوية بالتقيؤ.
أجابته بضربة قوية على الطاولة قلبت فناجين القهوة أرضاً لافتة أنظار رواد المقهى..
حطّمت بها صوراً وهمية لعالم وهمي، قاطعة عليه أحلامه ومقفلة على نفسها باب الأحلام.. إنه الدرس الأكثر قسوة الذي تلقته في حياتها، وسيكون الأخير. اتخذت قراراً، ستقفل الفايسبوك نهائياً.

✳ ✳ ✳

عادت إلى اللابتوب حاولت تشغيله ولكنه لم يعمل.. يبدو أن تلك الضربة أثّرت على دماغه، وقد تكون أطاحت بملفاتها الخاصة بعملها داخل الجهاز.. كادت تفقد ما بقي من رشدها ومن أعصابها..
تذكّرت أن هناك محلاً قريباً من بيتها لتصليح أجهزة الكمبيوتر.
استقبلها صاحب المحل بالترحاب:

- أهلاً بالدكتورة سعاد.. نوّرت المحل، رحم الله والدك أبا سعاد.

- تعرفني!.. وتعرف والدي أيضاً؟..
- أنت ابنة الحي ودكتورة معروفة.. طبيعي أن يعرفك كل من حولك دون أن تكوني تعرفي الجميع.. هذا بديهي.

المرحوم والدك كان الجميع يحبونه ويحترمونه.. أعرفه جيداً كان ووالدي كالأخوة، هذا المحل كان قديماً لأبـي لتصليح التلفزيون والراديو..

كنت آتي لمساعدته أيام العطل المدرسية، وكم كنت أحبه وأفرح بمشاهدته لما لديه من طباع مرحة وحديث جميل..

ابتهجت روحها للحديث عن والدها: "كم من الوقت مرّ يا سعاد ولم تتذكّري والدك أو تتحدثي عنه مع أحد!".

قالت:

- أعدت لي ذكريات جميلة كانت نائمة.. نعم، أذكر جيداً حين كنت أرافق والدي وأنا صغيرة كيف كنا نقضي الوقت في الشارع لكثرة ما كان يستوقفه ناس لإلقاء التحية، أو عرض مشكلة لديهم يطلبون منه المساعدة على حلّها لما له من كلمة مسموعة لدى أهل الحي.
- نعم أذكر ذلك الوقت جيداً، كان أحياناً يمر برفقتك، يتوقّف لإلقاء التحية على أبـي..

صمت مفكراً.. ثم حدق إلى وجهها مبتسماً وقال:

- أكثر ما أتذكّره أنك كنت دائمة العبوس بعكس والدك..

تفاجأت بكلامه، وضحكا معاً..

- نعم تذكّرتك، أنت سمير.
- نعم حضرتي سمير.

"ما الذي يحدث!.. وكأنها تعرف هذا الإنسان منذ زمن بعيد.. نسيَت ما مر بها خلال النهار مع ذلك العجوز المجنون.. تمنّت لو يدعوها للجلوس، تريد أن تسمَعه أكثر، سرعان ما تحقّقت أمنيتها حين أصر على طلب القهوة.

علِمَت أنه مهندس كمبيوتر، موظف في شركة، ويعمل في محله بعد انتهاء دوام الوظيفة.

* * *

أيام والجهاز لم ينتهِ من التصليح.. ولكن الأمر لم يضايقها.. فقد انتبهت أنها نسيت هواياتها في المطالعة وفي العناية بالزهور.. وأنها لم تقم بزيارة مكتبتها منذ زمن بعيد..

غابت بين طيات كتب اشترتها ولم تلقِ عليها نظرة.. لتكتشف كم أضاعت من الوقت هباءً أمام الفايسبوك.. همهمت ساخرة من نفسها:

"ما الفائدة من ساعات أقضيها على الفايسبوك دون نتيجة؟..

ماذا لو سقط في غرامي كل رجال الأرض الافتراضيين؟.. طالما كل واحد

منهم يمتلك امرأة في الواقع..
وماذا بعد؟ هل سيأتون على بساط الريح ليحملوني إلى عالم مسحور في بلاد الواق الواق؟".
أصبحت أثناء مرورها اليومي تلقي التحية على سمير وعلى من تلتقي به من أهل الحي، يبادلونها التحية بابتسامة عريضة..
يوماً بعد يوم تحوّلت الابتسامة إلى أحاديث عن أمور الحياة والسياسة وعن متاعبهم وأوجاعهم.. أكثر عبارة يرددونها: الله يرحم والدك أبا سعاد..
يا له من وفاء!.. الموت لم ينسهم إنساناً أحبوه.. تساءلت لائمة نفسها:
"يا لي من غبية معقّدة، منذ صغري وأنا لا أحب الاختلاط بالناس، كنت دائماً وحيدة منعزلة. كم كان أبـي يؤنبني، حين يأتي إلينا ضيوف، كنت أختبئ في غرفتي حتى يذهبوا..
لِمَ لم أختلط بهم يوماً، ولم أشعر بوجودهم؟ أراهم يومياً، أعبُر من بينهم وكأنهم خيالات لا تعني لي شيئاً!..
ما أجمل الناس هنا، كيف يكون لي كل هذا الحب في قلوبهم دون أن أدري؟"..
صفحات نابضة بالطيبة والحياة، أضيفت إلى شبكات مشاعرها، اجتاحها دفء التواصل الإنساني الذي ألغت وجوده التكنولوجيا..
استعاضت بهم عن ذلك الصندوق البريدي الفايسبوكي الغامض الذي يشبه صندوق العجائب..
توطدت أواصر الصداقة مع سمير.. كل مساء يتصل بها مطمئناً، كان صوته يقفل أبواب العتمة والوحدة.. تضحك لظرف حديثه وروحه المرحة كما لم تضحك من قبل.. اكتشفت أنها أيضاً، تتقن المزاح..
قال لها يوماً:
- دكتورة سعاد، ما رأيك أن أدعوك على فنجان قهوة وسندويش شاورما على البحر بشرط أن تدفعي الحساب؟..
- حاضر أيها البخيل، وسأدفع لك أيضاً، ثمن البنزين.
- يا سلام هكذا الأصحاب أو بلا.. فأنا رجل أصبح فوق الخمسين ونسي أن يتزوّج. لذلك بدأتُ حالة من التقشف تحضيراً لبيت الزوجية السعيد.. آن الأوان للاستقرار.
قالت والفرحة ظاهرة في كلماتها:
- أحسنت.. قرار صائب. أتمنى أن تلتقي رفيقة عمر تسعدك.
- شكراً دكتورة سعاد.. ولكن عليك تحضير هدية عرس كبيرة لصديقك سمير منذ الآن.
قالت ساخرة:
- ما رأيك أن أهديك سيارة موديل هذه السنة؟..
- أحسنتِ "هيدا حكي" فسيارتي أصبحت قديمة لا تليق

بالعروس.

- وهل أقل منها، فأنت لك دين برقبتي.. أصلحت لي اللابتوب دون مقابل.
- حقاً! يا لي من أبله نسيت ذلك.

✳ ✳ ✳

فنجان قهوة على البحر، وصوت "أم كلثوم" يصدح في أرجاء المكان، جعل أمواج البحر تهدأ لتسترق السمع إليه:

"خدني بحنانك خدني.. عن الوجود وابعدني".

قال لها:

- ما أجمل البحر لحظة الغروب، مع هذا الصوت الساحر!
- طبعاً يا أستاذ، فأنت الآن في صف العشاق.
- ليس أجمل من هذا الشعور يا دكتورة.. أن يصبح إنسان آخر جزءاً من روحنا ووجودنا.

كلامه أعاد إليها واقعها المؤلم، بكى قلبها بصمت.. من أين لها هذا الشعور بالحب!..

تجهّم وجهها، لم تستطع إخفاء حزنها.

- ما بكِ يا دكتورة؟.. هل تشعرين بألم؟..
- لا ليس بـي شيء.. منظر البحر أخذني إلى البعيد.
- آها.. فهمت، أيتها الشاعرة الرقيقة.. إذن أنت تتنقلين فوق الأمواج، تلتقطين ألوان الغروب، لترسمي قصيدة.
- ما كل هذا يا أستاذ؟.. أنت شاعر وأنا لا أدري!..
- ما رأيكِ أن يأخذ لكِ هذا الشاعر المتواضع صورة مع حبيبك البحر؟
- لا مانع، منذ زمن بعيد لم أتصوّر معه.

قال بصوت منخفض:

- سأخبرك سراً يا دكتورة.. أنا اخترت رفيقة العمر.
- ألف مبروك، يا له من خبر جميل..
- عقبالك دكتورة بعريس يستحقك..

قالت ضاحكة لتخبئ حزناً داهمها:

- لا يوجد من يستحقني، لذلك لن أتزوّج.
- قريباً أعرفك إلى حبيبتي، ستحبينها كثيراً.
- سأجهّز نفسي إذن لشراء السيارة الهدية، هناك محل ألعاب قريب من عيادتي، غداً آتيك بها (يضحكان معاً) فقد تحتاجها في تنقلاتك الكثيرة أثناء التحضير للعرس.

ملأت قهقهاتهما المكان.
حدّق إليها طويلاً وقال:
- كم تملكين من جمال مخبوء يا سعاد.
للمرة الأولى لم ينادِها دكتورة.
- هل تريدين رؤية صورة حبيبتي؟..
- بالطبع سأرى التي سلبت عقلك بعد هذا العمر من العزوبية..
قرّب لها الهاتف..
- انظري، هل أليق بها؟
اختلط الأمر عليها، ارتبكت، تلعثمت.. إنها صورتها التي التقطها لها الآن..
أرسلت نظرها إلى المدى الذي لا ينتهي عند هذا البحر وصدى صوته في أذنيها: "نعم.. إنها صورتكِ.. إنها أنتِ.. حبيبتي".

بائعة الأعشاب

أرتال من السيارات لا تتوقف، طالت وقفتي "كم أصبحت أكره عبور الشارع من ضفة إلى ضفة".. سائقو السيارات هذه الأيام ينهبون الشوارع وكأن الوقت يطاردهم.

على الجهة المقابلة من الشارع تقف امرأة عجوز، تحمل أكياساً كبيرة.. "مسكينة كيف ستقطع الشارع بهذا الحمل الثقيل!."..

خفّتْ حركة السيارات قليلاً و"جاء الفرج"، تقدمتُ عدة خطوات سريعة، المرأة أيضاً استغلت الفرصة وتقدمت بخطوات بطيئة، تجر أكياسها وأثقالاً من السنين.

عجوز هرمة، تبدو قد تجاوزت الثمانين من العمر!

التقينا وسط الشارع، أمسكتُ بها لأساعدها بالوصول إلى الضفة الأخرى "لم يكن هناك وقت لتناول الأكياس منها"..

ما كدنا نصل إلى الجهة المقابلة حتى أفلت من يدها أحد الأكياس.. داسته عجلات شاحنة مسرعة.. خفق قلبـي هلعاً.. كان من الممكن أن نكون أنا أو هي مكان هذا الكيس "سيئ الحظ"..

صرخت المرأة وكأن الذي دُهس شخص عزيز عليها، عادت أدراجها إلى الخلف في محاولة لجلب الكيس..

ما كادت تصل حتى انطلقت أبواق السيارات، مع زعيق الفرامل، حاولت العجوز التعبير عن غضبها ببعض الشتائم، صوتها الضعيف لم يسعفها فاكتفت بالتلويح بيديها وكأنها تقذفهم بما عجز لسانها عن قوله.

سحبتها إلى الوراء بقوة وأنا أتساءل: ماذا يوجد داخل ذاك الكيس حتى تغامر بحياتها لأجله؟

حدّقت العجوز إلى الكيس القماشي المرمي وسط الشارع، وعجلات السيارات المارة تسحقه.

انهمرت دموعها مع تنهيدات عميقة "كاوية هي الدموع المتساقطة من خلف أكداس العمر".. اختلج وجهها، أصبحت تجاعيده أكثر عمقاً، قالت وكأنها ترثيه: "يا أسفي عليك، يا ضيعان التعب"..

- ماذا يوجد في الكيس يا جدتي؟
- فيه قوت نهاري، أخذ مني وقتاً وجهداً منذ الفجر، أمضيت ساعات وساعات أجول في الحقول، في أماكن بعيدة، أبحث عن أعشاب برية، فهذا موسمها إن كنت تعلمين: الهندباء، والخبيزة، والشُّمَّر وغيرها..

ساعات يا ابنتي، وأنا أجرُّ نفسي جرًّا، أحفر الأرض بسكينتي، أقتلع الأعشاب، منها ما يؤكل، ومنها ما يستعمل في أدوية الطب العربـي...

كلما أضفت قبضة أعشاب إلى الكيس تكبر فرحتي بالحصول على ثمن أكبر.. اليوم كان الرزق وفيراً، ملأت هذين الكيسين.. يا لحظي السيئ! آه يا ابنتي ضاع تعب نهاري سدىً.

- يا جدتي إنه عمل شاق على امرأة في سنك، أين أولادك؟

هزَّت رأسها وتنهدت قائلة:

- إنه عملي الذي أعيش منه منذ سنين طويلة، تعرفني الحقول، كل حبة تراب فيها تعرف وقع خطواتي ولمسات يدي..

كنت أعمل في الأرض مع المزارعين.. أزرع، أُعشِّب، أقطف الخُضَر.. ولكن تقدم العمر وعجز الشيخوخة حالا بيني وبين هذا العمل الشاق.. فاتخذت بيع الأعشاب البريَّة عملاً لي، وأحياناً أذهب إلى الحقول التي كانت مزروعة، التقط ما بقي فيها من خضار وأبيعها.. لقمة مريرة يا ابنتي ولكنها أفضل من العيش بالذل على حسنة الآخرين.

لم يرزقني الله بأولاد، ليس لي في الحياة سوى زوج عاجز، يعاني من أمراض مزمنة أقعدته منذ زمن بعيد، داء السكري تسبب ببتر قدميه، أتركه يومياً، أطرق أبواب الرزق في تلك الحقول، لأجلب له الخبز والدواء.

كانت تتكلم بوهن، وضعت يدها على رأسها واليد الأخرى تحركها في الهواء وكأنها تبحث عن مكان تستند إليه كي لا تسقط.

- ما بك يا جدتي.. هل أنت بخير؟
- أشعر بدوار، قدماي لا تحملانني.

جلسنا على الرصيف، أطلقت زفرة شعرت معها كأنها ستلفظ آخر أنفاسها من قلب يلهج آخر نبضاته.

- كم أتمنى الراحة الأبدية يا ابنتي، أحلم بالموت على سريري وليس وحيدة في الحقول تأكلني الكلاب الجائعة ولا يعلم بـي أحد.. تعبت.. متى تغادرني هذه الروح كي أرتاح؟

"يا له من استمرار وحشي للعمر، حين يتحوّل موتاً يومياً.. ويصبح الرحيل إلى المثوى الأخير راحة ينشدها من سحقتهم قسوة الحياة".

حملت كيسها الوحيد ومشت تترنّح.. تكاد تسقط أرضاً.

- إلى أين يا جدتي وأنت بهذه الحالة؟
- زوجي ينتظرني، لا أحد بجانبه، تأخرت عليه.

أوقفت لها سيارة تاكسي، ولكنها رفضت بشدة قائلة:

- سأذهب سيراً على الأقدام.. لا أحب ركوب السيارات.
- لا لن أتركك تذهبين لوحدك وأنت بهذه الحالة.

ساعدتها بالصعود إلى السيارة بعد جدال طويل، أوصيت السائق بإيصالها إلى بيتها، سألتني قبل أن تنطلق:

- أين منزلك يا ابنتي؟
- أشرت لها إلى بيتي الذي كان قريباً من المكان.. أخذت عنوانها

ووعدتها بزيارة في أسرع وقت.

مشهد يدها التي بقيت تلوح لي بها من نافذة السيارة حتى ابتعدت، ما زال عالقاً في روحي.

مضت أسابيع وأيام..

ذات يوم، سمعت حركة خارج باب منزلي، انتظرت أن يقرع الباب، لكن صوت السكون وحده ما يدخل سمعي.

فتحت الباب لأجد كيساً مليئاً بالأعشاب معلقاً على قبضة الباب، أدركت أنه من تلك العجوز المسكينة.

أسرعت إلى الطريق، رأيتها، كانت تبتعد مسرعة، وكأن أحداً يلاحقها، ناديتها لم تلتفت، أسرعتُ خلفها.

- لماذا فعلت ذلك يا جدتي، لِمَ لم تطرقي الباب وتدخلي؟!

نظرت إليّ وكأن حنان الأرض يتجلّى في عينيها:

- خرجت اليوم قبل طلوع الصباح، وفي نيتي أن أهدي لابنتي أفضل وأطيب الأعشاب البرية، كانت الأرض كريمة معي، وجدت كثيراً منها.. خشيت أن تلحي عليّ بإعطائي ثمن ما حملت لك فتذهب سعادتي.. حرمني القدر أن يكون لي ابنة، لا تحرميني من فرحتي، رأيت بك حنان الابنة، فأردت أن أبادلك عطاء الأم، لا تتكلمي، ولا تقولي لي شيئاً..

- ماذا أقول لك يا جدتي، كنّا غريبتين، وها جمعتنا الإنسانية في رحابها.. شكراً لك أيتها الكريمة في روحها، لا يوجد كلام بعد هذا الكرم!!

بعد أن أرشدتني إلى كيفية الإفادة من بعض الأعشاب كوجبة طعام، والبعض الآخر كشراب مفيد لبعض الآلام.

- سأزورك قريباً يا جدتي.

قبّلتني وابتسامة عريضة ارتسمت على وجهها قائلة:

- هل حقاً ستأتين لزيارتي؟.. إنه يوم السعد.

- نعم سأزورك وأتعرّف إلى جدي، ولن أترككما بعد الآن.

- حين تصلين إلى الحي الذي ذكرته لك، اسألي عن "سليمة بائعة الأعشاب" الحي كله يعرفني.

استهلكتني هموم الحياة والعمل.. ولكن صورة المرأة العجوز لم تفارق مخيلتي.

بعد فترة من الزمن ذهبت إلى العنوان الذي أعطتني إياه.. حي فقير يقع في مكان يطلق عليه اسم "مخيم" أكواخ من تنك مبعثر وإسمنت متكئ يزاحم بعضه بعضاً.. أين أنا؟..

لا منازل هنا.. لا عناوين، ماذا أرى؟.. وكأنني في مقابر للأحياء!

اجتمع حولي بعض الأطفال المتسوّلين والمشرّدين، وكأنهم مولودون من غير بشر، بل نبتوا كأعشاب برية في أرض جرداء.

سألت من صادفتهم عن منزل "سليمة بائعة الأعشاب" وكان الجواب نظرة ساخرة دون جواب "يبدو أنني أخطأت العنوان، لا أحد يعرفها هنا".

أحد الأولاد شدني من يدي:

- تعالي معي أنا أرشدك إلى بيتها.

سرت معه في الأزقة والزواريب المكتظة بالبشر، رأيت وجوهاً غريبة وكأنها آتية من كوكب آخر.

سألني الولد:

- ماذا تريدين من سليمة؟
- لا شيء أريد زيارتها فقط.

فوجئت بقهقهته العالية حتى كاد أن يقع أرضاً، مع إشارة يده:

- لقد وصلنا.. هذا بيت سليمة.

يا له من مكان!!.. لا أتخيّل أن يسكن هذا الكوخ الموحش إنسان!

طرقت باباً لم يكن في الأصل باباً، لوح خشب ملقى على جدار متهالك من الرطوبة.

مع كل طرقة ترتفع ضحكات الولد.. خفت منه وحزنت عليه، مسكين يبدو أنه مصاب بلوثة في عقله.

- ماذا تريدين يا سيدة؟

سألني رجل بصوت خشن ونظرة فاحصة.

- أريد أصحاب هذا البيت..

رد بسخرية:

- يا لها من صدفة عجيبة.. كل هذا الزمن لم يسأل عنهم أحد، جئت متأخرة.. ماتت سليمة، ومات زوجها بعد أيام قليلة.

صعقتني الصدمة، خنقتني دموع الندم، مشيت خطوات وأنا أدمدم:

سامحيني يا جدتي الحزينة.. حقاً جئت إليك متأخرة.. أدركت عندها لماذا ضحك الولد، كنت أنا المجنونة وليس هو..

التفت إلى الرجل بعد أن تذكرت كلام جدتي سليمة حين قالت أن أمنيتها في آخر عمرها أن تموت على فراشها.. خرج صوتي متهدجاً:

- هل ماتت العجوز داخل منزلها؟

هز رأسه.. نعم.. ماتت على فراشها..

عنتر زمانه.. والزعيم

دخل الصيدلية، يتنقل على رؤوس أصابعه، رأسه مشدود إلى الأعلى، صدره "منفوخ" إلى الأمام، كتفاه مرفوعتان، ساعداه منفرجان على جانبيه بعيداً عن جسده، تثنان تحت ثقل عضلات ضخمة وكأن رأس بطيخ حُشر في كل منهما، حتى يُخيل للناظر إليه أنه سيهوي إلى الخلف..

بدا كرجل آلي أُخطِئت برمجته..

عموده الفقري ملتوٍ.. فالمسدس المتربع على خاصرته من العيار الثقيل..

عنتر زمانه "تعنتر" بزينة الرجال.. ولو رآه عنتر لضرب نفسه بالنعال خجلاً من أشباه الرجال..

يعقد بين عينيه حتى يكاد حاجباه أن يتصافحا، للدلالة على هيبته التي تبدو ضيقة عليه.

أزرار قميصه العليا مفتوحة، تاركة مساحة واسعة لعرض سلسلة تحمل شعار أحد المذاهب يتدلى من رقبته..

لا تخف يا هذا، الحبل في رقبتك متين.. دفعت ثمنه وطنك وحضارتك، وأولادك وأحفادك وأجيالاً لم تولد بعد!..

علاَّقة مفاتيح في يده، ما انفكَّ "يلوّح" بها وكأنها جهاز يمد دماغه ودورته الدموية بالطاقة..

في ذيلها شعار حزب وصورة زعيم، لا يكاد نظر المواطن يقع عليها حتى يتجسد أمامه تاريخ وإنجازات هذا المدعو "زعيم" بكل صورها البشعة.. لتسقط فوق رأسه حجارة من جدار الوطن "المخلَّع".

اقترب من الصيدلي، رمى أمامه علبة دواء فارغة طالباً علبة مثلها، لكن الصيدلي لم يلتفت كونه منشغلاً مع آخر يصرف له وصفة الدواء..

علاَّقة المفاتيح ارتفعت وتيرة خشخشتها، تهتز من دون توقف، فالغضب أخذ منه مأخذاً عظيماً..

"كيف ينشغل الصيدلي بزبون آخر ويهمل شخصية خطيرة مثله!"..

رمق الصيدلي بنظرة وعيد، زفر زفرةً عميقة.. وانتفض زاجراً بصوت جهوري وكأن الشيطان متربع على كتفيه ويركله على صدره بقدميه:

- هات الدواء بسرعة يا رجل.. "وقت الناس مش ملك أبوك!"..

ناوله الصيدلي علبة الدواء المطلوبة بسرعة لينتهي منه، دون أن يعلّق بكلمة، فهو يعرف جيداً هذا النوع من المخلوقات..

ما كاد يرى تسعيرتها حتى زعق كأن قنبلة صوتية انفجرت في حلقه..

- "ليش سعرها ارتفع هالقد.. شو الشغلة سرقة؟".. تضعون الأسعار على هواكم وتمتصون دم المريض.

رمقه الصيدلي بنظرة ساخرة من قمة رأسه حتى أخمص قدميه، وتوقف عند

علاقة المفاتيح قائلا:

- "كل شي ارتفع سعرو، روح اسأل حضرة زعيمك، اللي هو من أصحاب القرار بالحكومة، عن سبب الغلاء!".
- إياك أن تتلفّظ باسم زعيمي بالسوء.. أفهمت!.. إنه بعد الله.. هو شرفنا وكرامتنا، ولولاه ما بقينا ولا بقي البلد.

قهقه الصيدلي حدّ البكاء مصفقاً:

- طبعاً طبعاً يا أخي!.. أليس هو العمود الذي رفع السماء كي لا تسقط على رؤوس البشر!
- لا تجعلني أفقد أعصابـي أيها الكافر الملحد!.. شعب غبـي لا يعرف معنى الدين والمذهب، ولا معنى الوطنية.
- طالما أنت وأمثالك تعبدون زعيمكم، وقد حشركم في قاع جيبه الصغير، لماذا لا يؤمن لكم الدواء والحياة الكريمة من تلك الجيب التي تفيض من دم الشعب المسكين وأمواله؟..

ألف مبارك عليك بشحمه ولحمه "وبعره".. صحة على قلبك أشبع به.

أثار غريزته كلام الصيدلي، فوضع يده على خاصرته متفقداً مصدر رجولته:

- أيها النذل.. يبدو أنك لا تعرف مع من تتكلم؟.. وترغب باللعب بدمك!
- أعرف جيداً مع من أتكلم، لا داعي للتعريف عن نفسك.. الكتاب يُقرأ من عنوانه.. "زلمة أمير حرب".. زلمة رئيس حزب طائفي من الأذناب التي تُغرق البلد.

نظرة تتقد شراً كادت تُخرج عيني "عنتر زمانه" من محجريهما أصابت الصيدلي بالرعب فتمتم في سرَّه:

اسكت يا صبـي، اكسر الشر.. زينة الرجال بيد هكذا مخلوقات يجرح.. يبدو أن زعيمه أقام له اليوم مأدبة علف محترمة بخطاب رنان!..

حاول ترطيب الجو، انطلاقاً من مقولة: "اليد اللي ما بتقدر تقطعها بوسها، وادعي عليها بالكسر"..

فقال بلهجة هادئة بعض الشيء، فقدت الكثير من الغضب مقفلاً الطريق على هذا الجدل العقيم:

- تكرم عينك.. سأحاول أن أحسم لك من السعر ما استطعت.

لكن عنترة هذا، امتدت يديه إلى جيوبه بحثاً عن ثمن الدواء..

الوجه المعلق في علاَّقة المفاتيح يرافقه في البحث، ينتقل معه من جيوب المحفظة، إلى الجيوب الأمامية والخلفية، وجيب القميص، ومع كل جيب فارغ تتسع ابتسامته ويقهقه فرحاً بوصوله إلى الهدف المنشود.

أثمرت نتيجة البحث عن العثور على نصف الثمن..

مد يده بالمال إلى الصيدلي قائلاً بصوت انخفض درجات عدة عن السابق:

- ابني مريض جداً وإن لم أعطه هذا الدواء سيموت.. سآتيك

ببقية الثمن غداً.
أجاب الصيدلي:
- ليست مشكلتي يا أخي.. أنا موظف هنا ولست صاحب الصيدلية.
طأطأ الرجل المنفوخ رأسه وكأن هموم الدنيا سقطت عليه:
- أرجوك.. أنا أعمل ليل نهار وأولادي لا يشبعون الطعام.. متطلبات الحياة كثيرة، تفوق احتمال عامل بسيط مثلي.. ما في جيبـي لا يكفي لشراء طعام لهذا اليوم.. فكيف لي بشراء الأدوية الغالية الثمن؟!..
- أنت عاجز عن تأمين الطعام والدواء والمدرسة والمستشفى لأولادك، وتتزين بهذا المسدس الغالي الثمن!..
- ومن قال لك أني دفعت ثمنه؟..
إنه هدية ثمينة من الزعيم تقديراً لنضالي وجهودي في الشارع.. وعلى دعم مسيرته الوطنية، والسهر على أمنه وحياته..
وأردف مفاخراً:
- إنه يفضلني عن كل تابعيه.
وبسرعة البرق نسي ابنه والدواء وما هو فيه، أخذه وهم العظمة، فامتشق هاتفه قائلاً بفرح الأطفال "بخرجية" العيد:
- انظر إلى صوري معه، انظر كيف يلتصق بـي، انظر إلى يده كيف تحيط كتفي.. يا له من إنسان متواضع يحب الناس، لم تجلب الحياة مثيلاً له.. ولن تجلب.
لجم الصيدلي لسانه بصعوبة حتى كاد يختنق بما تكوم من حجارة داخل حنجرته، أراد أن يرشق بها رأس هذا الغبـي الفارغ، الذي يهلّل لصورة تجمعه مع قاتله وقاتل أولاده.
- نضالك إذن يا عزيزي ورفيقي بالمعاناة، يستحق مدفعاً وليس مسدساً.. تفضل يا أخي ادفع وخذ الدواء، لديّ عمل.
انقلب المارد فجأة إلى إنسان هرم محطم، تهاوى على أقرب كرسي، علبة الدواء مخرز ثقب رأسه، كادت كلمات الصيدلي تتسرّب إلى داخله، تحسّس رأسه، لا رأس له، هناك صدأ وعفن أزمنة سحيقة..
تلمّس قلبه، فانزلقت نبضاته كفقاقيع جحيم فوق أفق يحترق بلهاث الدجالين. قطرات من العرق انحدرت من جبينه، دخل ملحها وأحرق عينيه.. حاول إيقافها، مسحها باليد المتشبّثة بعلاقة المفاتيح.. التقت عيناه صورة الزعيم المفدى.. رآه يرمقه بنظرة غاضبة:
"أهكذا تخذلني يا رجل!.. أنسيت أننا رجال الماضي والحاضر!.. وأننا من سيصنع التاريخ.. أهكذا تضعف!.. يا له من عار ألحقته بـي وأنت أحد رجالي الكبار؟"..
انتفض من مكانه، عاد الهواء الملوث يضخ في شرايينه، انتفخ من جديد..

وبلمح البصر خطف علبة الدواء دون الالتفات إلى الصيدلي، أو سماع شتائمه..
سار ببطء.. تمايل خطوة إلى اليمين وخطوة إلى اليسار.. أكمل طريقه باتجاه جنازة.. ليشارك في تشييع وطن مسلوب.

أبو حجر

ها أنا في الطريق إليك يا "عين الورد"..
ثلاثون عاماً من الغربة، لم تستطع أن تمحو صورتك من خيالي.
كلما اقتربت خطوة، يعود بـي الزمن خطوات، وتعود ذاكرة الطفولة ترشدني إلى الطريق المنسي.. هناك حيث العصافير والضحكات الكثيرة.
آلهة الماء والجمال، المتربعة وسط جنة من أشجار الحور والبيلسان.. وأجواق العصافير في حضرتها ترتل صلاة الصباح في مهرجان الحياة!
كم تتوق كفي لتغرف من مائك العذب الرقراق، الصافي كدمع العيون.. كما كان يحلو لي وأنا صغيرة.
حنيني يعدو أمامي، أسرع الخطى كي لا يسبقني.. هذا الحنين كم أتعبني وأقلق ذاكرتي..
وذلك الرجل الغريب الشكل والطبع الذي كان يدعى "أبو حجر".. أثر جرح قديم في قدمي يذكرني به..
كان جزءاً من الطفولة ومن نبع العين، ومصدر رعبنا الدائم، ماذا حلّ به؟!..
كان أهلنا يخيفوننا منه قائلين:
- هناك شيطان دخل جسده، حوَّله مسخاً بشعاً لأنه لم يكن يسمع كلام والديه.
لم يُعرف له سر، ولم يُسمع له صوت، سوى صوت حجارته التي تلاحق من يؤذيه!..
الجميع كانوا يخافونه وينفرون من شكله، وكأنه مخلوق شيطاني وليس من طينة البشر..
يُروى أن النسوة أتين صباحاً كالعادة لملء الجرار بالماء من "عين الورد"..
وجدوا صبيًّا جالساً على حافة العين، واضعاً قدميه في الماء..
يداه على بطنه ورأسه يتدلّى إلى الأسفل.. تارة يئن أنيناً مخيفاً وتارة أخرى ترتفع شهقات بكائه لتملأ أرجاء المكان.
اقتربن منه.. ما إن رفع وجهه إليهن حتى تقهقرن إلى الخلف يستعذن بالله مما خلق، ولسانهن ينطق بتعويذات يعتقدن أنها تبعد الشياطين:
- يا ساتر يا رب ما هذا؟.. إنه مخلوق عجيب.. مسخ مخيف!
كان فتىً في قرابة العاشرة من عمره، لديه تشوّه خلقي في وجهه وأذنيه، وحدبة في ظهره... على خده الأيسر بقعة مستديرة نبت فيها شعر كثيف..
دماء جافة على شعره ووجهه نزفت من جرح في رأسه.. كفّا يديه مغلّفتان بخرق من القماش.. يرتدي معطفاً فضفاضاً، حجبت الأوساخ لونه الحقيقي.
صرخت به إحداهن:
- ماذا تفعل؟.. ارفع قدميك من الماء، ستلوث ماء العين.

رفع قدميه خائفاً.. كانتا بحالة تدمي القلوب، متورّمتين يكاد جلدهما أن يتفسخ.. تغطيهما جروح يبس الدم حولها.. يبدو أنه سار مسافات طويلة في أراضٍ وعرة.

انهمرت أسئلة النسوة وتعليقاتهن:

- لِمَ أنت هنا؟.. أين أهلك؟.. كيف يتركونك تخرج من البيت؟..

ارتفعت وتيرة ارتجافه.. حاول أن ينطق، خرجت من فمه همهمات غير مفهومة، فاتضح لهن أنه أبكم.

أخذ يئن أنيناً مريعاً محاولاً إيصال ما يريده بإشارة من يديه..

قالت إحداهن:

- ابتعدن، يشير إلى فمه وبطنه، يبدو أنه يريد أن يأكلنا!..

ضحكن لكلامها.

- يبدو أن أهله من سلالة القرود. قالت أخرى.
- الحمد لله إنني لست حاملاً، وأنا أرى هذا المنظر.

حاولن إبعاده عن نبع الماء:

- اذهب من هنا، عد إلى أهلك، منظرك سيرعب أولادنا..
- الحق معكِ، نحن ارتعبنا فكيف بأولادنا!

أسمعوه الكثير من الإهانات، ولكنه لم يتزحزح من مكانه. وما كدن أن يدرن ظهورهن حتى كانت جرار الماء على أكتافهن قد تحطمت برشقات حجارة، أطلقها الفتى الغريب، فاندلق الماء على أجسادهن..

ومنذ تلك اللحظة أطلق عليه اسم "أبو حجر".

مجموعة من الفتية اليافعين أتوا إلى العين للانتقام منه عمّا فعله بنساء القرية.. وجدوه يغط في نوم عميق بظل شجرة صفصاف.. بيد كل منهم قضيب، ركلوه بأقدامهم.. استيقظ وأخذ يزأر كوحش كاسر، خافوا منه، وقفوا بعيداً يسخرون منه ويقذفونه بالحجارة وبأبشع العبارات:

- يا لك من مسخ جميل..
- أمي معها حق، إنه مخيف.. يبدو أن أباه سعدان وأمه غوريللا..

قال آخر وهو يكاد يُغمى عليه من الضحك:

- انظر إلى ظهره إنه يشبه سنام الجمل..
- لا.. إنه يشبه الحمار... هاهاها..
- اذهب من هنا أيها القذر البشع.. وإلاّ قطّعنا جلدك بهذه القضبان.
- يبدو أن هذا المفترس أعجبته غابة عين الورد، ولا يريد الذهاب، هيّا فلنضربه لأن أمهاتنا لن يتجرّأن على الاقتراب من العين ما دام هو هنا.

تكاثروا عليه، ما أن تلقى الضربة الأولى حتى تحوَّل وحشاً حقيقياً، هاجمهم، وأوسعهم ضرباً، برأسه، بيديه، بالحجارة.. هربوا من أمامه، لحقتهم حجارته.. أحد

الصبية سقط وكُسرت يده، وآخر شُجّ رأسه، لم يسلم ولد منهم من الإصابة.
تكرّرت الاعتداءات عليه وتكرّر انتقامه، يبادلهم الحجارة بالحجارة..
يوماً بعد يوم فهم أهل البلدة طباعه وتأقلموا معها بعد أن عجزوا عن طرده.
يقضي الوقت بالجلوس بظل شجرة صفصاف بجانب العين، إنها مكانه المفضل، حتى سميت باسمه "صفصافة أبو حجر"..
في المساء يأوي إلى زاوية في محطة قطار مهدّمة اتخذها مسكناً له.. كان بعض الناس يرمون له بقايا طعام، وكسرات خبز..
لا يؤذي إلاّ من يبادر إلى أذيته.
شديد الانتباه، لديه فراسة غريبة في قراءة النظرات المحدّقة إليه عن بعد، يفهمها جيداً، ويتعامل معها بما يناسب، فحجارته جاهزة دائماً في جيوب معطفه، استعداداً لأي طارئ.
أكثر ما كان يثير الاستغراب أنه لم يكن يصوّب حجارته إلى رأس عدوه ووجهه..
له قدرة خارقة على إصابة الهدف.. يصيب الشخص الذي يريده من بين مجموعة أشخاص.
صوت كأزيز الرصاص أعادني من الماضي..
حجر كاد أن يصيب وجهي، خبأت رأسي بين يدي اتقاءً من حجر آخر...
صراخ وضحكات فتيان صغار مروا بجانبي يَعْدون بكل قوتهم، وكأنهم هاربون من معركة، ورشقات الحجارة تلاحقهم...
يا لهول المشهد عندما تراءى لي من خلفهم صاحب الانحناءة المعهودة، إنه هو أبو حجر!..
وجدته أمامي غاضباً كثور هائج.. ويده مرفوعة بالحجر..
تسمّرت مكاني، ماذا أفعل؟ هل أهرب؟.. هل أصرخ؟..
هي اللحظة تكرّر نفسها، وكأن الحياة تود إعلامي بأن الوقت توقف بي هنا، وهنا عاد للدوران مرة أخرى، وأن السنين لم تكن سوى سراب..
فجأة توقفت في عيني حركة الزمن، لتكرر تلك اللحظة من الماضي البعيد نفسها:
أبو حجر أمامي، يهدر غضباً، الحجر بيده، وأنا مرمية أرضاً، الرعب عقد لساني، وقلبي كاد أن يتوقف..
كنا مجموعة أولاد في طريقنا إلى المدرسة التي يمر طريقها بجانب عين الماء، مرّ ولد شقي بجانبنا قائلاً:
- انظروا كيف يمشي القرد أبو حجر! (مقلداً مشية أبي حجر الذي يسير قفزاً بسبب التواء قدميه).. ضحكنا جميعاً، لم نعرف كيف انهمرت الحجارة علينا، ركضنا أمامه بكل ما أوتينا من قوة، وهو يعدو خلفنا..
حجر أصاب قدمي، تعثرت ووقعت على وجهي.. الدماء سالت من أنفي ومن

جبهتي، لم أشعر بالوجع، فالخوف جمّدني وأنا أراه يتقدّم نحوي.. شعرت أنه سيأكلني، سأموت الآن!..

لم أشعر إلاّ ويد قوية ترفعني عن الأرض، نظر إلى وجهي المعفّر بالتراب والدم والدموع.. تفقّد قدمي الجريحة التي أصابها حجره..

كنت أترقّب كيف سيبدأ بقتلي ولكني رأيت منه تصرفاً غريباً.. أخذ يضرب على رأسه ووجهه بقوة، سمعت صوت بكائه.. رأيت دموعه.. الرجل المخيف يبكي؟.. تركني وابتعد.

كيف قالوا إنه يأكل الأولاد إن وقعوا في قبضته؟!..

منذ تلك اللحظة سقطت أسطورة الوحش أبـي حجر، لم أعد أخافه، أصبحت آتية كل يوم ببعض الطعام، أفرح حين يتناوله مني، تتغير ملامح وجهه، ربما كان يبتسم!..

هي اللحظة تكرر نفسها يا أبو حجر، رغم أنف السنين.. أو أن الزمن هنا لا يسير، فبقي العالم حولك صغيراً..

أجيال مرت من هنا وأنت ما زلت على انحناءتك تحاكي الحجر!

ذكرى حادثة الماضي أعادت إليّ بعض الاطمئنان..

حدّقت إليه، رأيت بقايا إنسان عجوز هرم، واهي القوى، سمعت لهاث قلبه الكهل.. ازداد تقوّس ظهره، ما جعل وجهه بمواجهة الأرض..

شعرات بيضاء مبعثرة على رأسه الأصلع.. هالات سوداء حول عينين غائرتين.. وكأنها فوهات براكين مطفأة.. تحيطها تجاعيد بين طياتها حكايات أزمنة من التشرد والوجع..

يا لقسوة الحياة معك أيها المسكين!

يبدو أنه فهم مغزى نظراتي، لم يتحرك، بقي محدقاً إليّ شارد الذهن.. هل عرفني؟!..

رفع يده مشيراً إلى جبهتي، إلى آثار ذلك الجرح، سقط نظره إلى قدمي مكان حجره.. امتدت يده إلى جيبه، أخرج كسرة خبز، تأمّلها طويلاً، وكأنه يحاول أن يتذكّر شيئاً ما.. بدا شيء من البهجة على ملامح وجهه.. ارتجف فمه، وكأنه يود الكلام، انتظرت انطلاق زئيره كالعادة.. ولكن كانت الصدمة حين سمعت صوت يقول:

- أهذه أنت؟!!..

نظرت حولي مستغربة، من أين أتى هذا الصوت، لا يوجد سوانا في المكان، وأبو حجر أبكم!

- أنت الطفلة التي سقطت أثناء هروبها مني حين أصبتها بحجر في قدمها؟..

أربكتني المفاجأة.. هل حقاً ما يحدث!.. هل أنا في حالة هذيان!

- لا تخافي..

- أنت تتكلم؟!

أجاب بلسان ثقيل:

- فقدت النطق لسنوات، بقيت صامتاً، لم يكلمني أحد، ولن يكلم مسخاً مثلي.
- نعم أنا هي.
- كنت تأتينني بالخبز والطعام، من دون أن ترميه لي من البعيد ككلب جرب كما كانوا يفعلون، بينما أنا سببت لك الأذى.
- ذاكرتك قوية!..
- عرفتكِ من عينيكِ، لم تتغيّرا.. كم كنت أتألم وأنا أراقب مشيتك العرجاء أثناء مرورك إلى المدرسة..

الندم قتلني.. لست مؤذياً، أنا أحب الناس، ولكنهم كانوا يعاملونني كحيوان مريض، ويجبرونني على أذيتهم..

كنت أبكي كلما جرحت أحداً..

ليتهم كانوا يشعرون أنني إنسان مثلهم...

كنت أراقب الأطفال ويحترق قلبـي، كم تمنيت لو أنني أكون مثلهم ليوم واحد، لساعة واحدة، نلعب ونضحك معاً.. لماذا وُلِدت مسخاً لماذا؟!

انهمرت دموعه، ترك لها العنان ومشى، سرت وراءه.. الفضول دفعني إلى معرفة سر هذا الإنسان.

اتجه نحو شجرة الصفصاف بجانب العين، أذكر هذه الصفصافة التي سميت باسمه "صفصافة أبو حجر".

نظرت حولي.. هالني ما رأيت، المشهد صفعني بقسوة، الخيبة أحرقت حنيني، تحوّل رماداً، صرخت به:

- أين عين الورد؟!.. أين الجنة التي كانت هنا؟!.. أين العصافير والأطفال؟..

مكان فارغ، الأشجار غادرت المكان، بقايا أشجار يابسة هرمة، لا بساط أخضر، لا زهور.. لا خرير ماء متدفق من عينيك يا نبعة الورد..

لا شيء هنا سوى آثار لنبعة ماء.. مغطّاة بالحجارة والأوساخ، ومستنقع للحشرات والبعوض.. ترشح ببعض الماء... وكأنها دموع تبكي إنسان "الحجر"..

وحدها صفصافة أبـي حجر ما زالت شامخة وارفة.. تنبئ بأنه ما زالت في هذا المكان حياة. كل شيء مشوه هنا إلاّ أنت يا أبو حجر.. سألته والغصة تخنقني:

- هل تسمح لي بالجلوس تحت صفصافتك؟

أجاب مرحِّباً، وكأن لديه زائراً عزيزاً:

- نعم، نعم. اجلسي.
- شكراً.

قال مرتبكاً وهو ما زال غير مصدق أن هناك إنساناً يحدّثه ويعامله بلطف واحترام:

- أنا اسمي خليل.
- خليل.. يا خليل.. انتهى زمن الحجارة.. من الآن أنت خليل..

وجم شارد الذهن، وكأنه غير قادرٍ على استيعاب ما يجري:

- هل حقاً أكلم إنساناً.. وأن هناك من يناديني باسمي، بعد خمسة وأربعين شتاء!
- ولِمَ الشتاء يا خليل؟
- أحسب السنين بعدد فصول الشتاء، فالشتاء مؤلم موحش، الثلوج تغطي المكان هنا، فيقتلني البرد والصقيع..

أكوام الثياب التي كنت أضعها فوق جسدي، كان يشفق عليّ بعض الناس ويقدّمونها لي، لم تكن تدفئني. كانت العين تخلو من الناس.. كنت أجوع..

قطعت عليه استرساله في الكلام كي أخفّف من سعير عذابه:

- من أين أتيت يا خليل.. وأين أهلك؟

وضع كفيه على رأسه وزفر تنهيدة هرمة بعمر عذابه:

- أنا ابن عائلة كبيرة.. أبـي من كبار تجار الأقمشة.. لي أخ مشوّه مثلي، الخلافات بين والديَّ لم تكن تهدأ.. كنت أسمع أبـي يقول لأمي:
- أنت السبب، في عاهة ولديّ.. لماذا لم تخبريني أنّ لك أخاً هكذا؟!.. وأن أهلك يسجنونه في غرفته كي لا يعلم به أحد!..

سأطلّقك.. وأتزوّج امرأة أخرى تنجب لي أولاداً أصحاء افتخر بهم أمام الناس، أدخلهم المدارس والجامعات ليحتلوا مراكز مرموقة، يرثون اسمي وأموالي.. وليس مسوخاً يرتعب الناس من رؤيتهم.

حين كانت أمي تدافع عن نفسها كان يدفعها نحو الباب بقسوة:

اخرجي من بيتي لا أريد رؤيتك هنا يا وجه الخراب..

فتجيبه: سأرحل ولكن سآخذ أولادي معي.

فيقول لها: لا.. سيبقون سجناء في هذا البيت، لن أسمح لأحد أن يراهم، فيسخر مني ويقول أولاد فلان..

كان دائماً يضربها بوحشية.. كنا أنا وأخي الأصغر نبكي، وحين نحاول إبعاده عنها، كان يضربنا، طالباً من الله أن يأخذنا ويريحه من أشكالنا المقرفة.

يوماً بعد يوم بدأت أمي تفقد الصبر، تصاب بنوبات جنون، تضرب نفسها، تحطم ما يقع أمامها، تضربنا أنا وأخي.. وعندما تهدأ تحتضننا وتبكي بحرقة.

كان أبو حجر ينتفض غضباً مع كل مشهد، تنتفض دموعه وكأنه يعيشه اللحظة..

- اهدأ يا خليل..

ولكنه لم يسمعني. بقي هناك في البعيد، توارى خلف أكداس السنين السود في ذاكرته، يضيئها لحظة لحظة.

- وفي يوم أسود طلّق والدي والدتي بحجة أنها مجنونة. ذلك

الصباح الرهيب، أفقت على صراخ وعويل... ويا لهول ما رأيت!..
غطى وجهه بيديه، وكأنه يختبئ من المشهد، وانفجر بالبكاء كطفل.
وضعت يدي على يده التي يشبه جلدها حراشف السمك وأنا أتحرَّق شوقاً لاكتشاف بقية سره:
- اهدأ قليلاً يا خليل.. وبعدها نكمل الحكاية!
ولكنه تابع استرساله دون أن يسمعني:
- رأيت أمي في حديقة المنزل تحترق.. أشعلت النار بنفسها..
رفع كفيه إلى أنفه يشمّهما ويقبّلهما قائلاً:
- انظري، هذا ما بقي من أثرها وذكراها.. حاولت أن أطفئها بيديّ.. احترق شعري وقسم من وجهي..
كانت يداه مصابتين بحروق غائرة تكاد العظام أن تظهر منها..
ماتت أمي محترقة أمامي..
الصدمة عقدت لساني، فقدت النطق..
آلام حروقي أشعلت جنوني..
هجمت على أبـي أركله وأضربه بيدي حتى التصق لحمي المحروق بثيابه..
وأنا أصرخ به بحقد مريع: قتلت أمي أيها المجرم..
لم يخرج صوتي، كررتها مرات دون جدوى.. عرفت أنني أصبت بالبكم. ضربني بوحشية وهو يردّد: يا وجه الشؤم أنت السبب..
صرخ بالخدم: خذوا هذا المسخ من أمامي، اقفلوا عليه باب غرفته، لا أريد أن أراه..
لم أشعر إلا وأنا أحمل حجراً وأرميه به.. واتبعته بحجر آخر.. رأيت الدماء تسيل من رأسه..
تركت البيت..
همت على وجهي..
سرت أياماً بلياليها، قطعت الوديان والبراري، دون هدف، لا أعرف أين أنا ولا إلى أين أذهب.
في الليل أحتمي بجذع شجرة وأنام.. كنت ألتقي ببعض الناس، منهم من يشفقون عليّ، ومنهم من يهربون مني.
الجوع أفقدني القدرة على السير..
وجدني راعي غنم مرمياً في أحد الوديان، غائباً عن الوعي.. حملني على ظهر حماره إلى كوخه، كنت مصاباً بالحمّى، اعتنى بـي، ضمّد حروقي الملتهبة، أطعمني بيديه..
بقيت عنده حتى تماثلت للشفاء..
حاول أن يعرف شيئاً عني حتى يعيدني إلى أهلي، ولكن من دون جدوى، فقد كنت عاجزاً تماماً عن النطق.
أخبرني أنه سيغادر المكان ليعود إلى عشيرته.

حزنت كثيراً لفراقه، فقد تعلّقت روحي به.. كنت أنظر إلى فمه وقلبـي معلّق بكلمة تمنيت أن ينطقها، ويطلب مني الذهاب معه، ولكنه لسببٍ ما لم يقلها..
الطقس كان بارداً جداً، قبل ذهابـي ألبسني معطفا كبيراً بعد أن ملأ جيوبه ببعض الطعام والخبز.
عدت إلى تشرّدي.. التقيت كلاباً شاردة، وكنت أخافها حتى الموت..
كلب كبير رأيته يقترب مني، ضربته بحجر وهربت، لحق بـي، تعثرت ووقعت، أصبت بجرح في رأسي. اقترب مني وأكمل طريقه كأن شيئاً لم يكن.
كان يتكلم وتتزاحم الكلمات في صوته المتقطع، وكأن مخزون قلبه على مدى سنين من العذاب انطلق مرة واحدة.. كان جائعاً لمن يسمع أنين قلبه..
تابع قائلاً:
- لا أعرف كم مرّ من صباحات وليالٍ وأنا تائه.
كلما وصلت إلى بلدة يضربني الأولاد ويطردني الكبار
حتى من المقبرة التي لجأت إليها طردوني.
وصلت إلى هذا المكان على آخر رمق من الحياة
أحشائي تتمزّق جوعاً
روحي تتمزّق ألماً،
قدماي مهترئتان،
جروحي متقرَّحة..
أدركت أن الموت يقترب مني..
تلك اللحظة عرفت ما هو الموت.
جلست قرب نبع الماء.. غطّست قدمي بماء العين، فربما تخف وطأة الألم..
وبكيت،
كل ما استطعت فعله هو البكاء..
أتت مجموعة من النسوة، خالجني شعور بالراحة فربما أنال منهن بعض الشفقة،
لكنهنّ خفن مني.
اشمأززن من منظري، كلامهن القاسي الساخر، فتّت قلبـي وأضرم فيه مزيداً من النار والألم..
أشرت لهن إلى أنني جائع، لم يفهمن، أردن طردي بعد أن أمطرنني بسيل من الكلام الجارح..
ما ذنبـي لأتحمل كل هذا الظلم وهذه الوحشية!..
يصمت قليلاً، ثم تجحظ عيناه كأنما تلك اللحظة تملّكت عقله:
- نهشني الحقد مكان الجوع... وقرّرت من لحظتها أن أحطّم وجه من يسخر مني.
كنت أنظر إليهن وهنّ يلقين للبط فتافيت الخبز،
كم تمنيت لو يرمينها لي، هل البط أفضل مني؟

نزلت إلى الماء بعد ذهابهن واستطعت التقاط بعض الكسرات، سابقت البط عليها..
اقتلعت أعشاباً طرية كانت تنبت على حافة الساقية، كنت قد رأيت بعض النسوة يقتلعنها والتهمتها، كانت حادة ولكنها لذيذة الطعم..

- يا إلهي كيف تحملت كل هذا العذاب وحيداً؟..
- لا.. لم أكن وحيداً.. كل شيء جميل هنا كان لي.. "عين الورد"، العصافير، السلاحف، البط.. الحقول والأشجار، كلها كانت لي وتطعمني من خيراتها.

عشقت هذا المكان... قرّرت ألاّ أفارقه مهما يفعل البشر.
كنت أستمع إليه بكل جوارحي.. جميل أنت يا أبو حجر.. إلى أعماقك انتقل صفاء الماء.. ونبت سحر هذا المكان، الذي أضاعوه بقبحهم.
لم يبقَ سواك من الذكريات الجميلة يا أبو حجر.. الآن فهمت معنى حجارتك!.. الآن رأيتك للمرة الأولى.
أمسكت بيده:

- هيا بنا يا خليل.. فالعالم هنا أكوام حجارة... عين الورد انطفأت ولكن جذورها ما زالت مضيئة تقول للعابرين:

أنا لم أمت.. ما زلت هنا مختبئة خلف بشاعة الشكل..
وما زال قلبـي ينبض بماء الحياة..

عصابة الكف الأسود

حقاً أنا طفلة شريرة!

(تمتمت في نفسها) وهي تغرق في نوبة من الضحك، تدهمها كلما توغلت في غياهب الماضي لتسطِّر حكاية ذلك السر المدفون.

هل أنا حقاً فعلت كل هذا؟.. يا لخيالي الواسع!..

كان على آغاثا كريستي الاستعانة بـي في تأليف رواياتها البوليسية!

صوت حنون أعادها إلى الواقع:

- على ماذا تضحك الأديبة العظيمة؟!.. أخبريني لنضحك معاً!
- أضحك على الطفلة والدتك، زعيمة "عصابة الكف الأسود"..
- ماذا تقولين؟.. عصابة الكف الأسود!..
- نعم.. حين أنتهي من كتابة سيرتي الذاتية، ستعرف الجواب، وعندها ستضحك حدّ البكاء يا بُني.

عادت إلى تجوالها على درب طفولة لم تعرفها.. وعبارة "عصابة الكف الأسود" تفتح أمامها صفحات من حكايات الوجع.

ها هي ندى ابنة الحادية عشرة، تتسلّل ليلاً إلى أمام بيت عمّها الملاصق لبيتها، حيث يركن سيارته. الظلمة دامسة، ترهف أذنيها، لا حركة، الكل نيام.

بسرعة البرق رفعت ماسحة زجاج السيارة ووضعت تحتها ورقة صغيرة.

اندسّت في سريرها ترتعش خوفاً من نتيجة ما أقدمت عليه، وكأن الحمى التي لازمتها أسابيع عدة، تسيطر عليها من جديد.

اليوم غادرت المستشفى بعد عراك مع الموت، أبى أن يأخذها رغم كمية الأدوية التي ابتلعتها بغية الانتحار.

هذه التجربة القاسية مع الألم، أطاحت ما كان لديها من بقايا طفولة، وما في قلبها من ضعف وخوف.. وأعطتها سنوات إضافية.. فإذا بها تتحول فجأة فتاة شابة، متمرّدة، تنبض في شراييها مشاعر غريبة، وفي رأسها مخطّط جهنمي.. كانت أولى خطواته هذه الليلة.

صوت من أعماقها: "لماذا ترتجفين هكذا يا ندى؟.. ماذا بقي لك لتخافي عليه"!..

نظرت حولها.. بيت فارغ تسكنه الوحشة، مصابيحه تحطمت مع رحيل من كانوا نور حياتها.. لا شيء هنا سوى خادمة قاسية تشبه "جن الحكايات".

هذه الخادمة أتى بها عمها بعد رحيل والدتها، بهدف خدمتها، فإذا بها سجان، تفرض عليها تنفيذ لائحة من الممنوعات، بأوامر من عمها.

ممنوع الخروج من البيت إلاّ إلى المدرسة.

ممنوع اللهو والكلام مع بنات الجيران..

ممنوع حتى مشاهدة التلفزيون، لأنه يفسد أخلاق البنات حسب زعمه.

سائق عمها يوصلها ويعود بها، برفقة ابن عمها نجيب الذي يوازي بحجمه الضخم وزن فتيان عدة..
إنه كسول أبله.. يكبرها بخمس سنوات ولا يزال في صفها.
لا يكف طوال الطريق عن الأكل والثرثرة التافهة وبقايا الطعام تخرج من فمه مع كل كلمة..
ملجؤها الوحيد ذلك العشق للكتابة تهرب إليها، وحدها السطور تسمعها والكلمات ترتشف عذابها.

* * *

اقتربت من عمها وبيدها ورقة علاماتها قائلة بفرح في محاولة لاسترضائه، فربما يخفّف عنها بعض القيود ويتركها تتنفّس ككل البنات:
- عمي انظر.. أنا الأولى في مدرستي..
رماها بنظرة ساخرة من طرف عينه وكأنه قاضٍ يتلو حكم الإعدام:
- وماذا سيفيدك هذا النجاح يا ابنة أخي، سنوات قليلة وتتزوّجين ابني نجيب، سيحافظ عليك وعلى ثروتك.
لا أريدك أن تتعبـي بالدرس يا حبيبتي، أصبحت تتقنين القراءة والكتابة، ألا يكفيك هذا!..
ماذا تفيدك الشهادة؟!.. من أجل العمل؟!.. المال وفير والحمد لله.. وأنا أرى أن تكون نهاية هذا العام الدراسي، السنة الأخيرة لك في المدرسة.
لم تستطع حواسها استيعاب ما سمعت:
"ماذا يقول هذا الرجل!.. ماذا أسمع"؟..
انطفأت فرحتها، شعرت بالاختناق، أخذت تشهق، كمن يتلقّى الطعنات.
قالت متلعثمة بصوت خافت وقد سبقتها الدموع:
- أنا أحب المدرسة يا عمي، بابا كان يريدني أن أكمل دراستي وأصبح طبيبة.
قهقه بوجهٍ تلحظه للمرة الأولى كم هو بشع:
- طبيبة!.. والدك مات ورغبته ماتت معه يا طبيبة، الآن أنا والدك وأدرى بمصلحتك، وعليك تنفيذ أوامري من دون اعتراض..
لا تعرف كيف تجرّأت وقالت له:
- لا، لن تكون والدي.. والدي كان يحبني.. وأنت تعذبني.
قبل أن تكمل عبارتها، هوت على وجهها صفعة قوية.. نظرت إليه من خلال دموعها، رأته عملاقاً جباراً مخيفاً له أكف سود.. وهي أمامه قزم يتيم.
تحول بكاؤها صراخاً:
- الموت أفضل من الحياة معك ومع نجيب الكريه.

أمي، أين أنتِ يا أمي!..
أب-ي، تعال وانظر إلى حبيبتك ندى ماذا يفعل بها أخوك!
مدّ يديك من السماء وخذني من هنا!.. وكأن خاطراً مر ببالها فصرخت: مهلاً يا أب-ي، انتظرني.. سأذهب بنفسي إليك.

* * *

نار ألهبت أعماقها، قامت من سريرها ودخلت غرفة والدتها المجاورة لغرفتها.
داهمها برد قارص وكأن عاصفة من الصقيع ضربت أنحاء الغرفة الخاوية.
جلست على طرف السرير الفارغ، تجسدت أمام روحها الوحيدة ذكرى ذلك اليوم المشؤوم:

- أمي.. خذي هذه الورقة من عمي.

ما كادت تقرأ ما فيها حتى بدأت تصرخ وتلطم نفسها:

- إنه قرار المحكمة، فعلها المجرم.

استطاع بواسطة الرشوة وبما له من نفوذ وسلطة، وقدرة على الكذب واختلاق الاتهامات، الحصول على قرار بأن أرملة أخيه ليست مؤهلة لرعاية ابنتها.. ونصّب نفسه الوصي على حياتها وثروتها.
لم تنفع توسّلات أم ندى ودموعها:

- خُذْ كل شيء، فقط اترك لي ابنتي سأعمل وأربيها.
- خذي أشياءك، وارحلي إلى بلدك، أنت غريبة عنا، لا شيء لك هنا، من كان يربطك بهذا البيت مات وانتهى.. ولا تنسي أن تبلغي سلامي لأخوتك الفقراء ومواساتهم عني على ضياع أحلامهم بثروة صهرهم حين تؤول إليك.

وأردف ساخراً بلؤم:

- قريباً تتزوّجين وتجدّدين شبابك.

ما كاد يخرج حتى سقطت أمها مغمياً عليها.

- أمي.. أمي.. صراخها مزّق سكون الليل.

دخلت الخادمة وهي تزمجر فقد اعتادت هذا العويل الليلي:

- ألا أرتاح منك لا ليل ولا نهار؟.. اللعنة عليك وعلى العاهرة أمك.. عشرون يوماً وأنا بجانبك في المستشفى بسبب فعلتك المشينة، أردتِ الانتحار للذهاب إلى والدك!.. ليته يأخذك وأتخلص من قرفك..

فلتأكلكِ العفاريت، اصمتي.. أريد أن أنام.. إياكِ والصراخ مرة أخرى.
كثيراً ما سمعت التأنيب والإهانة من هذه المرأة المخيفة، وكانت تصاب بالبكم خوفاً منها.
ما بها الآن؟.. ما هذا الغليان في دمها!..

أجابتها بغضب:
- اخرسي أيتها البشعة.. أنت العاهرة القذرة وليست أمي..
أجفلت الخادمة.. "من أين أتت ندى بهذه الوقاحة"؟!..
رفعت كفها محاولة صفعها..
وقفت أمامها بتحدٍّ:
- هيا اضربـي، ماذا تنتظرين؟.. سأحطم يدك إن امتدت إليّ أفهمتِ!
جمدت الخادمة في مكانها "ماذا يحصل؟.. من أين أتت ندى بكل هذه القوة!"..
- يبدو أن هناك من يلعب بعقلك.. انتظري، سيأتي الصباح، وسترين من الذي سيتحطّم رأسه العنيد.. إن عمك أفرط في دلالك، سأخبره حتى يعيد تربيتك من جديد.
- افعلي ما تشائين أيتها المتوحشة.. لو كان والدي حياً وأمي بجانبـي، ما تجرأ أحد على النظر إليّ. الطفلة اليتيمة المكسورة الجناحين ماتت. أنا لست ندى.. لست ندى!.. ندى انتحرت لأنها بلهاء ضعيفة.

* * *

جاء الصباح الذي تنتظره.. أصوات وضجيج، صوت عمها يزمجر وسط مجموعة من الناس، يشتم ويهدّد ويتوعّد كل من تسوِّل له نفسه الاعتداء عليه، يحمل ورقة بيد مرتجفة:
- انظروا ماذا كتبوا لي:
"سنأخذ ثأرنا منك قريباً أيها المجرم، سنقتلك، انتظرنا في أي لحظة.. ملاحظة: إياك أن تخبر البوليس.. الإمضاء: عصابة الكف الأسود".
- ماذا يريدون مني؟!.. أنا رجل لا يعرف إلاّ عمل الخير، لا أعداء لي.. يبدو أنهم يريدون المال.. سأسحق بحذائي من قام بهذه الفعلة الشنيعة..
ارتفع صوت:
- لا تخفْ من تهديدهم، عليك بإبلاغ البوليس فوراً.
أصابها الرعب.. "سيأتون بالبوليس، ماذا لو اكتشفوا أمري؟!".
كاد يغمى عليها من الخوف.. "ماذا فعلتِ بنفسك يا ندى؟"..
صوت من أعماقها صرخ بها: "لا تخافي، لن يعرفوا بالأمر".
وماذا سيحصل لو عرفوا؟.. هل سيقتلك عمك؟! فليفعلْ!..
ألم تحاولي قتل نفسك للخلاص منه؟!..
سيكون ذلك أفضل من أن يزوّجك ابنه نجيب الأبله ويحرمك من مدرستك.

حدّقت إليه وهو يرتجف من الخوف.
المشهد شفى غليل قلبها الجريح: "آه كم أبكيتني أيها المتجّبر! وكم أبكيت أمي!".
لذة الانتقام دفعت القوة في شراييها..
شعرت أنها هي العملاقة الآن وهو قزم الخوف. خبا سعير عذابها.. تنفّست الصعداء، ضحكت في سرها:
من أين أتتني هذه الفكرة الجهنمية؟..
الآن ستلهو بالمصيبة التي نزلت على رأسك يا عمي العزيز، ولن يكون لديك وقت لتعذيبي، سأجعلك تنسى وجودي.
زفرت الكاتبة تنهيدة مترجّحة بين بشاعة الماضي وبهاء الحاضر: "كم ستضحكين يا أمي حين تكتشفين سر طفلتك الشقية.. وكيف استطاعت إسقاط العملاق المخيف بورقة صغيرة".

✳ ✳ ✳

مرت أسابيع في التحقيق من دون جدوى، لم تسمع خلالها كلمة تأنيب من عمها، كل الوقت منشغل بالمصيبة التي حلَّت عليه، والخادمة لم تعد تجرؤ على رفع الشكاوى ضدها بسبب توتر أعصابه..
عادت لتلهو مع صديقاتها.. استعادت بعض حريتها.. لم يعد نجيب يرافقها.. منعه والده من الخروج خوفاً عليه من "عصابة الكف الأسود".
إلى أن تفاجأت به يصرخ عليها:
- تعالي إلى هنا.. وصلني أنك كنت تلعبين في الشارع مع رفيقاتك.. ألم أحذّرك؟!.. أتعصين أوامري!
صفعة قوية رمتها أرضاً..
للمرة الأولى لم تسقط دموعها.. بقيت عيناها تحدّقان إليه بحقد وهو يبتعد ولسان حالها يقول: "انتظرني سأرد لك الصفعة غداً".
وكأن الصدفة أرادت مساعدتها لتكيل الصفعة صفعات.. فكان أن جرحت يدها، رؤية الدم أيقظت ذهنها على فكرة جهنمية..
بسرعة كتبت رسالة التهديد ومسحت بها قطرات دمها.
عند الصباح استلم عمها رسالة التهديد الدموية.. وهذه المرة من داخل سيارته، كان قد نسي شباك السيارة مفتوحاً بعض الشيء مما أتاح لها إسقاط الورقة إلى الداخل..
حمل الورقة وهرع إلى البيت.. تكاد قدماه لا تحملانه من الرعب..
"ألم نقل لك: لا تخبر البوليس!.. نحن نرافقك كظلك، سنقتلك حتى وأنت في سريرك.. مثل الدماء على هذه الورقة، سيسيل دمك"..
- كلاب.. ماذا يريدون مني، فليأخذوا ما يريدون من مال ويتركونني

وعائلتي.
واستمرت رسائل التهديد لسنوات، كلما اقترب منها أو تدخل في شؤونها كانت تبعده برسالة، ترسلها بكل حذر وذكاء إلى حد أنها في إحدى المرات سلمته الرسالة بنفسها قائلة:
- عمي وجدت هذه في الحديقة..
انهار العملاق المتغطرس.. تحوّل رجلاً محطّماً، سجين الخوف داخل غرفته.. يعيش على الأدوية المهدئة للأعصاب.. فاقداً الاهتمام بكل ما حوله حتى عائلته..
سمعته ذات مرة يقول لزوجته:
- مال الدنيا لا يساوي لحظة من راحة البال.
ماذا تنفعني ثروتي وأنا قد أُذبح في أي لحظة، فليأخذوا كل ما أملك ويتركوني بسلام.
رق قلب ندى، شعرت بتأنيب الضمير، سامحني يا عمي، أنا لا أكرهك، أنت السبب، أنت من دفعني لأكون شريرة، كان يجب أن أدافع عن نفسي..
حرمتني من أمي وظلمتها، أردت أن تدفنني حيّة مع ابنك نجيب، وتدمّر أحلامي وحياتي بمنعي من الدراسة دون ذنب اقترفته.. من أجل الميراث!

✳ ✳ ✳

تابعت ندى دراستها بتفوق.. نالت شهادة البروفيه بدرجة جيّد جداً.
دخلت إلى عمها، لتخبره بنجاحها، هذه المرة لم يصفعها كيوم حصولها على شهادة السرتيفيكا.. بل امتدت تلك الكف لتمسح على رأسها بحنان.
- مبروك يا ابنتي.. أتمنى أن تنالي أعلى الشهادات.
لم تصدق ما رأت وما سمعت.. "ليتني ذلك اليوم سمعت منك يا عمي ما سمعته الآن!.. كم كنت اختصرت عليَّ وعلى نفسك من عذاب!".
أصبحت تجالس عمها يومياً، تسلّيه، تحدّثه، تخفّف عنه.. تخبره أن عصابة الكف الأسود مجرد أشخاص يريدون تخويفه لا أكثر، وربما هم من منافسيه في العمل.. وإلا لكانوا عملوا على أذيته...
اطمأن. بدأ يسترجع بعض قوته، خاصة أن رسائل التهديد توقفت.
تعلق بها وكأنه لم يكن يعرف بوجودها من قبل.. أصبح لا يطيب له العيش من دون وجودها إلى جانبه.
وفي يوم استجمعت قواها قائلة له:
- عمي.. أنت تحبني أليس كذلك؟
- طبعاً يا ابنتي.
- أنا اشتقت كثيراً لأمي.. ست سنوات لا أعرف عنها شيئاً بعد أن منعت عني رسائلها وعنوانها..
تغيّرت ملامح وجهه، ذكرى والدتها أيقظت بعض ضميره..

- لا عليك يا ابنتي، سيكون كل شيء كما تشائين..

قام إلى خزانته، أخرج عدداً من الرسائل:

- خذي يا ندى.. هذا ما بقي من رسائل أمك.. والعنوان عليها.

✳ ✳ ✳

بلغت ندى الثامنة عشرة.. حصلت على ثروتها بعد أن سقطت وصاية عمها قانوناً.. تنازل لها عن الثروة كاملة.

أول ما فعلته هو السفر إلى بلد أمها، ومن هناك حملتها معها إلى بلد أوروبـي حيث قررت إكمال دراستها والتخصّص في الطب تنفيذاً لرغبة والدها..

من هناك كتبت إلى عمها رسالة تقول فيها:

- عصابة الكف الأسود ليست سوى الغضب الذي يعيش في داخلنا، فيجعل أنانيتنا تسيطر على أفعالنا من دون أن ننتبه، وحين تستيقظ ضمائرنا، يتحول سلوكنا كفًّا أبيض..

وها أنا، يا عَمّ، في طريقي لارتداء الثوب الطبـي الأبيض، كُنْ هانئاً قرير العين بعدما أبدلت بالكف الأسود كفًّا أبيض.

غربة.. وغريب

أقفل آخر حقيبة، تنفّس الصعداء، كل شيء أصبح جاهزاً..

ارتسمت على وجهه ابتسامة فرح أكبر من أن تتسع لها ملامح وجهه.. فغداً صباحاً تنتهي غربته ويعود إلى بلده السودان..

غداً لقاء الأهل والحبيبة، والرفاق، غداً سيحتضنه صدر أمه الذي فارقه منذ عشر سنوات..

الحقائب جاهزة مثقلة بكل أشيائه الثمينة من صور وذكريات.. وهدايا.

اختار هدايا للجميع، كل واحدة مغلفة بابتسامة من ستصل إليه.

ألقى نظرة على إحدى الحقائب التي اختار لها اللون الأحمر.. خفق قلبه، إنها حقيبة حبيبته، وعروسه.. ملأها بهدايا ثمينة، كم أخذت منه وقتاً وتعباً وحرماناً لتوفير ثمنها.. وانتقائها بما يليق بزوجة المستقبل.

تخيل فرحتها حين تشاهد ما حمل لها من عطور وأدوات زينة وملابس نوم براقة، وأغطية مزركشة لسرير الزوجية الذي سيجمعهما بعد أسبوع.. وبالتحديد يوم عيد الأضحى..

في مكان آخر خلف البحار، تستمر ليالي البهجة والانتظار، واستعدادات الاستقبال، غداً يصل محمد، غداً سنحتفي بعودته، غداً سنطفئ سعير الشوق بالأغاني وبدموع الفرح والعناق.

* * *

محمد الذي اختارته الغربة، أتى باحثاً عن أرض بديلة يجد فيها ما أراد من حياة.. حاملاً أحلاماً كبيرة، متأبّطاً حقيبة مكدّسة بوجوه من يحب، لتكون النبض الدافئ الذي يقيه صقيع الغربة، وزاداً لقلبه حين يداهمه الحنين..

فالهدف الذي تغرَّب من أجله يستحق التضحية.. هناك أهل وأخوة أضنتهم قسوة الحياة، وحبيبة انتظرته سنوات.

* * *

ودَّعه رفاقه بعد أن قدّم له كل منهم ما تيسر لديه من مال كهدية تخفف عنه بعض الأعباء المادية التي بانتظاره، وهي عادة يتَّبعها أبناء جلدته بالغربة..

دخل ليستحم بعد التعب، تكاد الفرحة تمنع خطواته عن ملامسة الأرض، لطالما انتظر هذه اللحظة..

ثمة اتصال هاتفي يتكرر.. لف جسده المبلّل بمنشفة، خرج على عجل، ما اعتاد تأجيل أو إهمال طلبات سكان البناية التي عمل ناطوراً لها لسنوات طويلة.

دخل غرفة الكهرباء الملاصقة لغرفته، ليعيد التيار إلى إحدى الشقق، مرات عديدة في اليوم يدخل غرفة الموت، كما كتب بخط يده على بابها.. حتى أصبحت

جزءاً من حياته اليومية.. فالكهرباء مشكلة المشاكل في هذا العصر.
حين امتدت يده لإعادة التيار.. لم يكن يعلم أن القدر غيَّر اتجاه رحلته، وأن زر الكهرباء الذي سيرفعه سيضيء بيتاً في البناية وفي الوقت ذاته سيحرق قلوباً وأحلاماً في بيت آخر خلف البحار..
وأن يده المبلّلة بالماء، ستلغي موعد طائرته وتطفئ صباح سفره، وأضواء عرسه، وعيد الأضحى، وما بقي من أعياد..
وأن عمره سيبقى داخل أسلاك غرفة الموت، ضريبة لمرارة الحياة.. وهداياه ستذهب دونه محمولة على أجنحة القدر الأسود، لتصل جمراً ودموعاً.
فقد صعقته الكهرباء..
غالباً يموت الفقراء أكثر من مرة.. مات محمد السوداني.

* * *

الجهات المسؤولة في البلد طلبت مبلغاً كبيراً من المال لنقل جثمانه إلى بلاده، كذلك المستشفى طلبت مبلغاً يوازي ربع راتب عامل أجنبـي، مقابل كل يوم يبقى فيه الجثمان في براد المستشفى..
يا له من حلم مستحيل يا محمد أن تنال رفاهية الدفن في تراب وطنك!..
من أين لأهلك الحصول على جسدك المصعوق، من الأرض الغريبة، والمال الذي غرَّبك يقف حائلاً وبالمرصاد!..
رفاق جلدتك ومنذ أيام، يبحثون لك عن مكان في مقبرة، فقد طال مكوثك في ثلاجة المستشفى.. والفاتورة تكبر.
"تسعيرة" القبور كانت تذهلهم وتحول بينهم وبين الحصول على قبر، فهم لا يعلمون بأن القبور لم تعد لكل الناس، وأن قلب الأرض لا يضم الغرباء دون ثمن... فيعودون متسائلين: لماذا يأتي الفقراء إلى الحياة!
أخيراً، انفتحت أمامك أبواب الفرج، عثروا لك على حفرة بثمن مقبول، بعد دفع رشوة لحارس إحدى المقابر، ولكنك يا محمد ستدفن فوق جثمان رجل آخر، غريب مثلك كما قال الحارس..
وإن جثمان شريكك في مثواك الأخير جديد.. لا تحزن يا محمد، فقد تكون الجثث تحت الأرض أفضل من تلك التي فوقها!
ها هي سيارة دفن الموتى تصل بك إلى أمام المقبرة.. السائق مصاب بانفصام الشخصية، ظن أنك سائح أتى بك إلى فندق للنقاهة!..
طلب مبلغاً يوازي ثمن تذكرة سفر.
ها هو رجل الدين أتى للصلاة عليك... لم يكن وارداً في حسبان رفاقك ما سيطلبه من المال لقاء صلاته..
للصلاة أيضاً "تسعيرة".. على ما يبدو!!.. أتصدّق يا محمد!..
انتظر قليلاً، ألا تسمع الجدال المحتدم بين رفاقك ورجل الدين!..

حدة الجدال ارتفعت، المساومة على السعر لا تصل إلى نتيجة، بغية الاستغفار لك لتدخل إلى الجنة.. وإن انخفض المبلغ سيتركك في نصف الطريق معلّقاً بين الأرض والسماء..

ها هم يتوسّلونه الصلاة.. بما تيسّر لديهم من مال..

صلّ يا محمد، صلّ، كي لا تتم الصفقة..

وتُوارى الثرى مدنّساً بفحيح الشياطين.

من الطريق إلى الطريق..

صراخ امرأة حامل يملأ الشارع.. فالمخاض لا ينتظر.
مجموعة من النسوة تحلّقن حولها.. أحطن بها لعزلها عن أعين المارة والفضوليين.
الحشد يتكاثف ويتهامس: امرأة تلد في الشارع!
ليست في صحراء، ولا المدينة في حالة حرب..
والأكثر تساؤلاً أنها أمام بوابة مستشفى..
انطلقت الألسن، من كل حدب وصوب بشتى ألوان الشتائم، استنكاراً للمشهد المؤلم.. وإلى من أوصل البلد إلى الحضيض:

- إلى متى سيبقى هؤلاء الأنذال يتحكّمون في مصير الناس؟
- مسؤولون لا يعرفون ما هي المسؤولية، يلهثون وراء مصالحهم حتى لو كانت في القمامة!..
- إلى متى سيبقى الفقير يموت أمام المستشفى؟!
- مجرمو حرب، تجار دماء، هؤلاء لا شيء يوقف شراهتهم!..

* * *

استفاقت المرأة من غيبوبة آلام المخاض، عادت من موتها، انتهى كابوسها المؤرق الجميل، صراخ أبهج قلبها، رمى بأوجاعها جانباً..
تعرف صاحب الصوت جيداً، سكنها أشهراً طويلة.. شاركها الشهيق والزفير والنبض معاً، إنه الصوت الذي أعاد تكوينها، وارتقى بها إلى مصاف الملائكة حين جعلها أماً..
صوت أناس لم تألف سماعه من قبل دغدغ أذنيها "يخزي العين طفل متل القمر".
صوت امرأة غاضب:

- أبناء حكامك يولدون على أسرّةٍ من ذهب، ويرثون دمك أيها الطفل الجميل..

لم تكن تكترث بما حولها من ضجيج.. وكلمات استهجان، وعلامات استفهام، شغل اهتمامها وليدها القادم من أعماق الروح..
نسيت الزمان والمكان، وآلام المخاض حين رأته يحرك شفتيه وكأنه يقول لها: "أنا جائع!"..
الذين مرَّوا عرفوا اللغز، رموا على قماط الجنين ما جادت به أنفسهم من مال.
يبدو أنه استبشر خيراً، وربما يقول في سره، في هذه الحياة ما يستحق.. ما الفرق إن أتيت إلى الحياة على سرير أو على التراب!!.. بدأ يخرج لسانه متلمّظاً ليتذوق حلاوة ثدي أمه المأزوم بشح الحليب..

لملمت نفسها، حملت وليدها وغادرت المكان كسيرة القلب، بسيارة أجرة أوقفها لها بعض فاعلي الخير، تلاحقها تعليقات بعض المارة:

أغبياء.. طالما لا قدرة لكم على دفع مصاريف الولادة، لماذا تنجبون وتأتون بهؤلاء الأبرياء إلى الحياة؟!..

هل ينقص شوارعنا متسولين ومشردين؟!..

لم يغضبها تهكّمهم، فهم لم يتذوقوا رغيف الحياة المسموم..

كانت ترقب من خلف زجاج السيارة السور الطويل للمستشفى، وطبقاته الشاهقة..

لم يؤلمها ما حصل لها من إذلال عندما دفعها الحراس إلى الشارع بعد أن رفضت المستشفى استقبالها.. كانت تدرك أنه تصرف عادي بالنسبة إلى امرأة فقيرة مثلها.

لِمَ تحزن ما دام لها شركاء في هذا الذل، شعب بأكمله يعاني.. فالأمر ليس غريباً في هذه المدينة.. إنها حكاية الفقراء الأزلية..

ضمت وليدها بقسوة وزفرت: أتيت من الطريق فهل ستعود إلى الطريق يا ولدي!..

سألها السائق:

- إلى أين يا ابنتي؟..
- إلى مقبرة الغرباء.. سر وأنا أرشدك إلى الطريق.
- لماذا المقبرة؟.. هل تسكنين قريبة منها؟..

الدموع سبقتها في الإجابة:

- والد ابني يسكن فيها.
- الله يصبرك يا بنتي، لك الله.. ولكن ماذا حصل له؟

بماذا تجيب!.. هل تخبره عن قصة الحب التي جمعتها مع زوجها.. وأنهما تزوجا وعملا معاً، هي في معمل خياطة، وهو في مجال البناء، وأنهما اتفقا على ألاّ ينجبا إلا حين يصبحان قادرين على القيام بأعباء تربية من سيأتيان به إلى الحياة..

ولكن كلمة القدر أقوى من الأحلام مهما تواضعت.. حصل الحمل، ولسوء حظهما وقع زوجها من الطبقة الرابعة في الورشة التي كان يعمل فيها، وهي في شهرها الثالث من الحمل.

- وصلنا.. قالت له..

بعد جهد مضنٍ استطاعت النزول من السيارة، تئن أنيناً مكتوماً.. وكأنها تبتلع صراخها.. ولكن طفلها قام عنها بالمهمة..

هدهدته:

اهدأ الآن يا ولدي.. سيكون لدينا وقت كافٍ لنتشارك البكاء..

اقتربت من كومة تراب، مدت يديها بطفلها:

- خذ ابنك الوحيد يا حبيبـي.

حكاية رماد

سهواً أنهت قهوتها، انتبهت أنها تريد الاستمتاع بآخر رشفة، باغت التفل[1] شفتيها، دفنت أصابع يدها في منفضة السجائر المتخمة، في محاولة لخنق العسيس المنبعث من تحت الرماد..

بانفعال زفرت عندما لاحظت أن بصمتها زركشت أوراق مقالتها الأخيرة.

رفعت نظارتها فوق جبينها لترى... يا لها من فوضى!..

همهمت، عندما عرفت أنها ستعاود نسخ المقالة من جديد، وربما لن تكون الأخيرة.

تأفّفت وهي تحاول عبثاً إيجاد علبة سجائرها، لكن الأخيرة خذلتها، عندما تذكرت أنها أرسلت بها إلى سلة المهملات. هزت رأسها، ابتسامة جافة خرجت مع كلام مسموع:

- (مقال قاهر) وسلة المهملات أقرب إليه من المطبعة.

أيام وهي تحاول رسم ذلك المشهد الذي عاشت فصوله الدامية.. في مقال عن بشاعة الحرب بمناسبة ذكرى الحرب الأهلية.

أغمضت عينيها وبدأت تحفر قبر ذاكرتها..

النوم سلطته مطلقة على جفني أحلام، غالبها النعاس، لم ترغب في ترك طاولتها دون أن تنجز شيئاً، أخذها النوم دون تردّد وهي جالسة على كرسيها، إلى غيبوبة الحلم:

الجميع يسألون، والسؤال ذاته يتردّد:

- "شو فيه؟.. خير يا رب، ما الحكاية"؟...

تاه الجواب في بهو الحناجر، نساء ورجال، وأولاد، ووجهة البشر واحدة: ساحة البلدة الرئيسة حيث الجمع الغفير..

"الزمن أواخر سنة 1975 في حين كانت بيروت تلتهب، معارك، خطف، مجازر، ذبح على الهوية.

كانت هذه المنطقة ما زالت هادئة تحافظ على تعايشها".

المفاجأة صادمة، كل الذين رأوا المشهد ذهلوا وتراجعوا إلى الوراء بعيون جاحظة وألسنة تيبست في الأفواه أمام هول الحدث، علت وجوههم علامات الحيرة والدهشة، وكلهم لسان يتساءل:

- "سامي.. سامي.. ليش قتلوا سامي؟!"..

الشاب الوحيد لأهله ابن الثامنة عشرة، وابن إحدى العائلات الكبيرة، الطالب المتفوق الذي لا يعرف من الحياة سوى دروسه ومدرسته..

الخجول المهذب الذي يُضرب المثل بأخلاقه وسلوكه.. صاحب الرصيد الكبير في قلوب من حوله..

من الذي غدر بالبطل الحائز على بطولة رياضية وغرز مِدْيته في الصدر اليافع!

ماذا فعل هذا السامي ليلقى هذه النهاية المفجعة!...

أسئلة تبعثرت هباء من دون أجوبة، قطع استرسالها نحيب الأم الثكلى التي حفرت وجهها بأظافرها حزناً على فراق وليدها المسجّى أمامها بجسده الفارع غارقاً في دمه.

أمس عصراً ودّعها، حمل كتبه وسندويش وبعض الشوكولا الذي يحبه.. قائلاً لها كلماته الأخيرة:

- لن أتأخر يا أمي، سأعود باكراً، سأعود عند الساعة العاشرة، أشعر بصداع من كثرة الدرس..

ذهب للدرس مع رفاقه في البلدة المجاورة كالعادة، كانوا رفاق الطفولة والشباب لم يفترقوا يوماً..

تأخر سامي في العودة.. الساعة الآن الثانية بعد منتصف الليل ولم يعد.

خرج الأهل والجيران للبحث عنه، قصدوا الغرفة القديمة في الحقل، التي اعتاد ورفاقه الدرس فيها.. كان خمسة شبان منهم لا يزالون منكبين على دروسهم.

قالوا إنه تركهم منذ حوالى أربع ساعات.. وخرجوا جميعاً للمشاركة في البحث عن سامي وقد أصابهم الذعر، فهم يعرفون أنه لا يذهب إلى أي مكان إذا لم يكن معهم..

أخيراً عثروا عليه.. بل عثروا على جثته!!

جسد ملقى على وجهه في أحد الخنادق الزراعية التابعة لأرض البلدة الأخرى. من الذي غدر بسامي

الصدمة أفقدت رفاقه عقولهم لهول المشهد.. دوي صراخهم يمزّق نياط القلوب، بكوا كالأطفال، جثوا بجانب الجثمان والحسرة، كما التساؤلات عن سبب قتله، تنهش عقولهم...

ارتموا عليه يتوسّلونه أن يرد عليهم.. علق دمه على أيديهم وعلى وجوههم وثيابهم.

* * *

بعد أعوام طويلة خرج أبو سعيد عن صمته الرتيب عندما وصل بلدتنا الوادعة ضيفاً، ثم صار من أهلها، ربما لم تسنح الفرصة له، لكن الكرة في ملعبه الآن..

وقف ملاصقاً جثة الفقيد مخاطباً أهل بلدته وبجانبه رجال قساة الملامح لم نعرفهم من قبل:

- وحدهم أبناء القرية الملاصقة لنا من ارتكب هذه الجريمة الشنعاء..

قتلوا سامي لأنه من غير طائفتهم.

ليلة الأمس ذهب للسهر عندهم، وهو عائد قتلوه، هم ولا أحد سواهم من ارتكب هذه الجريمة البشعة.. الجثة كانت في خندق تابع

لأرضهم..
توقف لبرهة ثم عاد يقسم بأغلظ الأيمان والمقدسات:
- الدم بالدم.. وإلاّ لن نكون رجال، لن يوارى سامي الثرى قبل أن يسبقه مئة شاب من أبناء الطائفة الأخرى في البلدة المجاورة، حتى لو كلفني الأمر أبنائي الخمسة.
"للمرة الأولى أعرف أن جيراننا من طائفة أخرى".
ارتفعت صرخات الرعب والاستنكار من أبناء البلدة المجاورة الموجودين في المكان، الذين كانوا طوال الليل يشاركون في عملية البحث عن سامي.. هكذا اعتادوا ونشأوا على تلبية نداء بعضهم لبعض في الأفراح والأتراح.. فالبلدتان بيوتهما متداخلة وكأنهما بلدة واحدة.
ارتفع صوت أحد الرجال:
- ماذا يقول هذا الرجل؟!.. كلامه خطير، إنه اتهام وقح وافتراء.. سامي ابننا، ترعرع مع أولادنا، كَبُر أمام أعيننا.. نحن من خسرناه واحترقت قلوبنا عليه.. فكيف نقتله؟!.. ثم صرخ بأعلى صوته:
- أين العقلاء من أهل البلدة!..
فليُسكتوا هذا المجنون.. كلامه خطير، سيجر علينا جميعاً الكوارث والويلات..
محاولات التهدئة من كبار الشأن في البلدة لم تلقَ آذاناً صاغية، فالخطاب الدموي للرجل الغريب الذي استمر في حقن النفوس بالحقد، قد ألهب الأجواء.
تعالت الأصوات الغاضبة بين بكاء وصراخ ووعيد.
اختلط "حابل الأمور بنابلها"، تلك هي الساعة التي ضلّ فيها العقل السبيل، وتسيَّد جنون الدم.
أي تراب سيطيق فورة دمك أيها الفتى البريء!!
أي فجيعة تنتظر على أبواب البيوت!!..

سار موكب التشييع من بيت سامي، سار الجميع خلفه، ما عدا أهل البلدة الأخرى، غادروا المكان رغماً عنهم، أوصدوا أبوابهم وقبعوا خلفها خائفين..
رياح غريبة مجنونة هبّت فجأة، أخذت تعوي وتزمجر، تكاد تقتلع كل شيء أمامها.. أخذت تراقص النعش المحمول على الأكف.. كاد يسقط مع من يحملونه..
ارتفعت الأصوات:
- يا ساتر، يا رب!..
نعرف هذه الرياح، لم تأتِ منذ زمن بعيد..
يقال إنها رياح شريرة تنذر بالويلات!..
اصطفت الجموع أمام المقبرة لوداع العريس المسجّى في حضرة الموت، كان بينهم وجوه غريبة، من أين أتت وكيف؟.. لا أحد يعلم.

وقبل أن ينهي رجل الدين صلاته ارتفع زعيق رجل مسلح رافعاً بندقيته:

- قدموا التحية للشهيد!

لعلع الرصاص الذي أرعب الناس، ارتفع صراخهم.. لم يعتادوا صوت الرصاص.. ليقف الحشد بعدها مصدوماً مذهولاً، أمام رجال ملثمين، يتزنّرون بالسلاح، يجرجرون أرضاً خمسة شبان صراخهم يمزق الأفق ويهز الأرض والسماء:

- نحن أبرياء لم نقتله، إنه أخونا!...

وبلمح البصر، مزق الرصاص أجسادهم اليافعة.. رفاق سامي الخمسة قتلى!..

علا صراخ الملثّمين رافعين بنادقهم علامة النصر، ومن فوهاتها نوافير دماء يتناثر رذاذه إلى البعيد على مساحة بلد بأكمله:

- الآن سترقد بسلام يا سامي.. نعم سترقد بسلام..

ها هم من قتلوك يسبحون في دمهم.. ستدفن كالملك، وسيدفنون كالكلاب.

تلاطمت أمواج الأسئلة التي وصلت بعد فوات الأوان، حيث ازداد عدد الأمهات الثكالى والأرامل والأيتام، إنّها الحرب الطائفية، صارت الأرض فحمة، حجارة البيوت تبكي ساكنيها، الهواء الأصفر اقتلع الأطفال، صار الإنسان وحشاً، صار أفعى، تجرَّع السم وسقاه.. أي حرب هذه!.. لا بصر ولا بصيرة!!... من أشعل شرارتها، وماذا يبتغي من وراء سفك الدماء البريئة؟ من هو المستفيد؟

مررنا بكل الأسئلة، سوى السؤال الذي يقول:

أبو سعيد الذي جاء البلدة غريباً وسكنها، أين هو الآن؟.. ولماذا توارى وعائلته بعد مقتل سامي؟...

* * *

- أحلام.. يا أحلام، غفوتِ وأنت تجلسين على كرسي مكتبك، قالت الأخت الصغرى لأحلام.
- ربما غفوت لبرهة.
- كنت تحلمين، سمعتكِ وأنت تتمتمين: أبو سعيد.. أبو سعيد، من هو أبو سعيد؟
- إنه بطل المجازر الماضية.. والقادمة.

مقبرة الأحياء

- تفضّلي... غرفتها في آخر الممر.

وصلت إلى حيث أرشدتني الموظفة.. كان الباب مفتوحاً، رائحة كريهة تنبعث من الغرفة مترافقة مع صراخ وشتائم وأنين إنسان، وكأنه في حالة اختناق.

امرأة في الأربعينات من العمر، ترتجف غضباً، تمسك بكتفي امرأة عجوز هرمة ممدّدة على سرير في زاوية الغرفة.. تهزّها بعنف صارخة:

- إنها المرة الرابعة اليوم التي أنظفك وأبدّل ملابسك... كفى.. ارحميني، ألا تتركينني أرتاح!!...

كان تعبها بادياً، ليس على جسدها الذي بدا منهكاً من خلال حركته، بل على نفسيتها التي تكاد تنهار كما أعصابها، وقد فقدت السيطرة عليها.

تخاطب نفسها حيناً وآخر تصب جام غضبها على العجوز غير المبالية لما تعانيه هذه السيدة..

- آه.. انقطع ظهري، اللعنة عليّ وعلى الساعة التي جئت بها إلى العمل في هذا المكان الكريه..

ليتك تموتين أيتها التعيسة.. لماذا تعيشين؟..

الحياة تركلك في كل مكان من روحك، مثلما ركلك من كانوا روحك...

موتي، لم يعد لك مكان..

لم يبقَ لكِ في هذا العالم سوى أنفاس واهية وجسد فانٍ، مجرد كومة لحم وعظام تسيل منها الأقذار، وتثير اشمئزاز من حولها.

حتى الموت الذي تتوسلينه لا يسمعك...

لا أعرف ماذا ينتظر ليحقّق لك حلمك بالراحة الأبدية وينهي عذابك وعذابـي!!...

تباً لها من لقمة مغمّسة بالقهر والعذاب وبأقذار الآخرين.

كان أنين العجوز مريعاً، كلمات لا تستطيع النطق بها تتدافع في حنجرتها، تخنقها، فيختلج جسدها لاإرادياً بما بقي فيه من أثر لحواس لم يكتمل موتها بعد..

تنتفض مع كلمات العاملة، كل كلمة سوط يجلدها..

يفر الألم دموعاً حارقة من عينين غادرهما الضوء.. لتملأ تجاعيد وجه حفرها عمر يناهز التسعين.

- ماذا أرى؟ أين أنا؟.. ما الذي يحدث هنا؟...

لم أشعر إلاّ وأنا أدفع العاملة بعيداً عن سرير العجوز:

- أيتها المجرمة.. كيف تسمحين لنفسك الاستقواء على إنسان عاجز؟...

حدّقت إليّ، رأيت الدموع تغسل وجهها، سألتني:

- من أنت؟.. من سمح لك بالدخول إلى هنا؟.. وما شأنك بالأمر؟...
- جئت لزيارة هذه السيدة، هي من أقرباء والدتي، الصدفة أتت بـي لأشاهد ما أشاهد من تعاملك معها.. كنت أعتقد أنني في مكان لرعاية العجزة والمسنين، فإذا بـي في مكان للتعذيب.
- أنا لست مجرمة!...

المجرم هو من اختار لأهله دار العجزة في آخر أيامهم، ورمى بهم في مقبرة الأحياء هذه.. يأتون بهم حين يصبحون ورقة صفراء، ليفتّتها صقيع الوحدة وتذرّيها آهات قلوبهم في لحظات النبض الأخير...

- هذا يدفعك إلى مراعاة مشاعرهم والعطف عليهم وليس الغضب والتعنيف...
- ما أراه هنا يكاد يصيبني بالجنون.. معاناتهم تسكنني.. غضبـي سعير عذابهم اليومي المكدّس في أعماقي..

لست قاسية ولا عديمة الشعور، أنا أم أيتها السيدة!!...

وحدي من يشعر بعمق جراحهم، صدى أنينهم لا يسمعه أحد سواي..

أرقب عيونهم اللاهثة خلف الحزن.. يدخل عينيّ رماد أيامهم المتناثر في أروقة هذا المكان وزواياه..

أنا أقرب الناس إليهم، فعملي هنا العناية بنظافتهم..

ليس أشق ألماً وخجلاً على الإنسان من هذا الموقف...

كم أسمعهم يتمنّون الموت وأنا أنظّفهم.

حتى الموت هنا مختلف...

يقوم بمهمته على دفعات...

يزورهم يومياً...

يتفقّد أجسادهم...

يمتص جزءاً من الحياة فيها...

يأخذ معه بعضاً من أنفاسهم ويذهب.

أعاملهم بكل حنان، بعضهم يتعلّقون بـي لاعتقادهم أنني أحد أولادهم.

حتى أسماء أولادهم التي لا يتعبون من الهذيان بها، حفظتها عن ظهر قلب، باتت تطاردني حتى في نومي.

"تعبت، ما عاد قلبـي يحتمل، كثير هذا الألم".

كانت العاملة تتكلم تاركة العنان لدموعها، قلت لها:

- اهدئي أرجوك...
- أنا التي أعمل ليل نهار من أجل أولادي، أتخيّل نفسي أن أكون، يوماً ما، مكان هذه العجوز، وحيدة في هذا المكان الموحش...

لم أتمالك نفسي أمامها، وصدق معاناتها المصدقة بنبرة صوتها الذي تكاد العبرة والعبارة تخنقانه، ما تلفظت به هو الواقع...

خفق قلبـي بشدة، توقف الزمن بـي وعلامات الاستفهام المرعبة مزقت حواسي ورمتها خارج جدران الغرفة...

مصير الإنسان مجهول... ما الذي يمنع أن أكون أنا، أيضاً، يوماً ما مكان هذه العجوز؟!...

دنوت منها، هالني ما رأيت... وجه جمجمة مغطى بجلد أصفر شديد الشحوب... جسد ضامر ملتف على نفسه، أكله الكبر والعجز، حتى بات بحجم جسد طفل...

يا له من قدر حين يبدأ بنا العمر أطفالاً لينتهي من حيث بدأ!...

تفتح العجوز فمها، ذقنها يعلو ويهبط، تحاول التقاط صوتها لتقول شيئاً، ولكن تذهب محاولاتها في الفراغ...

سألت العاملة بانفعال:

- أين أولادها وأحفادها؟... لماذا لا تتصلون بهم؟... العجوز تبدو في لحظاتها الأخيرة... أنا طبيبة وأعي هذه الأمور.

- لديها ثلاثة أولاد خارج البلاد، اتصلت بهم إدارة المركز بعد أن ساءت حالة العجوز، قالوا إنهم سيأتون قريباً... الطبيب قال إنها تحت وطأة العجز وأمامها أيام قليلة في الدنيا.

انحنيت فوق الجسد المسجى، رأيت وجه أمي ووجه أبـي.. رأيت وجهي، ووجوه أمهات وآباء عبروا وسيعبرون من هنا..

قبّلت جبينها... امتدت يدي تمسح دموعها.. تلامس شعرها، تغمر يديها الباردتين.. بدا اختلاجها يهمد شيئاً فشيئاً، تبدلت ملامح وجهها... ثمة ابتسامة ارتسمت عليه... وكأن دفء الحياة تسلّل إلى شراييها الجافة...

شعرت بيدها تتشبّث بيدي.. من أين أتت العجوز بهذه القوة؟!...

نطقت يدها بما عجز لسانها عن البوح به...

فهمت عليك يا جدتي الطفلة، أنت سعيدة ومطمئنة الآن، تعتقدين أنها يد أحد أولادك...

فلترقد روحك بسلام، لن أدعك ترحلين وفي عينيك صور أبنائك القاتمة، جرح كاوٍ في إغماضاتك الأخيرة...

لن أدع قلبك يودع الحياة محترقاً دون أن تطفئه لمسات حنان... سامحيني يجب أن أكذب عليك.

- أمي أنا هنا بجانبك.

قالت العاملة وهي ترتجف:

- يبدو أنها تحتضر... لاحظت عليها ذلك منذ الصباح.

أعرف جيداً هذه اللحظات الرهيبة.

- همهمات مخيفة تنطلق من العجوز.. لهاث أنفاسها يتسارع... صدرها يعلو ويهبط بسرعة...

ثمة كلمات تتزاحم على فمها سبقتها دمعة كبيرة من عينين جاحظتين في

الفراغ، لينطلق صوتها بعد عناء:

- ابنتي...

تصمت بعدها إلى الأبد...

لا أعرف كيف خرجت من قلبـي صرخة قوية:

- أم.... ي!!!...

البرغش السعيد..

إنه موعدنا مع الكهرباء، يا لفرحتنا الليلة!...

الموعد الذي انتظرناه ثلاثة أيام بلياليها بسبب احتراق "سعادة" محّول الكهرباء في "الحي"، عانينا فيها شتى أنواع القهر، رأينا الموت بكل أشكاله وألوانه.

"الدنيي تموز والمي بتغلي بالكوز".. والبرغش: (البعوض) يكون بهذا الوقت في قمة شهوته وخصوبته، بخاصة في البيوت الفقيرة الرطبة، التي يمنعها الثمن الباهظ من استضافة اشتراك مولد كهربائي يحلُّ ضيفاً كريماً على الرحب والسعة، بغياب التغذية الكهربائية "التقنينية".. ما حرمنا نعمة النوم رغم استخدامنا ما تيسّر من وسائل بدائية لاتقاء شرَّه.. حتى أصيبت أعصابنا وأجسادنا بالتلف نتيجة فشلنا في مواجهه جيشه الجرَّار.. وقرصه البتَّار.

بعد جهد جهيد، وبعد "تبويس ذقون وأيدي".. أنعمت علينا شركة الكهرباء بإصلاح الأعطال "كثر الله خيرهم".

بدأ العد العكسي، عيوننا معلّقة بالساعة، نتنفّس الصعداء..

تعم البهجة أرجاء قلوبنا كلما انزاحت من وقت انتظارنا دقيقة، الموعد السعيد منتصف الليل، الفرج يقترب، حلم النوم المريح يكاد يصبح حقيقة..

الليلة سيتوقف عذاب ابنتي المريضة التي لا تحتمل صحتها هذا الجو الخانق.

سأستعيد بعض قواي الجسدية التي أنهكها السهر المضني بجانبها...

تك..!!

وجاءت اللحظة المنتظرة.. حضرت المحروسة "السيدة كهرباء" بعد طول غياب "شعشعت" البيت بإطلالتها البهية وبعثت في عروقنا البهجة والسرور.

ما أجمل حضورك بيننا يا "نور عيوننا، وحشيشة قلوبنا أنت".

عاد التيار الكهربائي.. عادت الحياة إلى شرايين البراد المحروم والمحموم، عاد صوته الحنون يعدنا "بشربة ماء مسقّعة تُبَوْرِد الزلعوم"..

رقص الطعام في الثلاجة فرحاً.. يَعِزّ عليه أن يتحول إلى قرين مع من سبقه، فيُرمى في سلّة النفايات مثل رفاقه الذين سبقوه، ويصبح "المرحوم".

تعلّق الهاتف برقبة الشاحن وبدأ يبلّل حنجرة بطاريته التي نشّفَتْ من قلّة الكلام..

المروحة الصغيرة التي تعمل على الشحن بدأت "تغُبُّ" الكهرباء بشراهة استعداداً لإنعاشنا بأنفاسها الباردة ساعات عدة في وقت التقنين اللعين..

المروحة الكبيرة تحولت إلى جارية في بلاط حضرتنا، تفتل وتبرم برأسها شمالاً ويميناً، طلوعاً ونزولاً، وتوزع نسماتها المنعشة بغنج ودلال..

البطارية التي تضيء لنا "لمبات" عدة أثناء غياب "السيدة كهرباء" والتي أضناها الجوع والعطش، بدأت بالتهام غذائها الكهربائي بجوع عتيق.. واختزانه

في بطنها الكبير الذي يحتاج ساعات طويلة ليمتلئ.
يا سلام!..
حقاً جميلة الحياة.. "مين قَدْنَا" المكيّف دار، فرحان "ومكيّف."..
الآلة الصغيرة التي تفتك بالبرغش تصدّرت مكانها في زاوية الغرفة بكل عظمة، عينها الحمراء الصغيرة تقدح شراراً وكأنها "حامي الحمى".
عطرها الفتّاك، المفضّل لدينا في أيام الصيف يصول ويجول مانعاً أي برغشة أن تتحرَّك من مكانها.
أصبح كل شيء جاهزاً للعبور بنا إلى النعيم المنتظر، ما أجمل الشعور بالفرج بعد الضيق!
الغرفة "مْبَوْرِدَة متل التلج"... ستحصل ابنتي "المقعدة" والتي تعاني من مرض "الربو" وضيق التنفس، على قسط من النوم المريح.
النوم السعيد بانتظارنا بعد ليال من السهر والقهر، استهلكنا فيها كل ما لدينا من صبر وطاقة.. وكانت فرصة سعيدة تعرفنا من خلالها على السيد "صبر أيوب" الذي تنازل لنا عن لقبه وفرّ هارباً.
فجأة وأنا في غمرة السعادة "نْئِزِتْ" (انتفضت مرعوبة)..
قفز تفكيري إلى المرضى والعجزة الذين ليس لديهم كهرباء في هذا الوقت الشديد الحرارة، ويختنقون من "الشوب".. لا أملك إلاّ الدعاء لهم من أعماق قلبـي الذي يعرف جيداً معنى هذه المعاناة...
تمنيت لهم أن تزورهم السيدة كهرباء على غفلة من حيث لا ينتظرون.
استلقيت بجانب ابنتي لأحكي لها حكاية، كما اعتادت قبل النوم..
ابتسامة ملائكية غمرت وجهها، وكأنها تقول لي:
اشتقت إلى حكاياتك يا ماما..
ما كدت أبدأ بسرد الحكاية حتى امتدت يد سوداء خطفت الكلام من حنجرتي، وساد ظلام رهيب..
إنها "السيدة كهرباء" سبقتنا إلى النوم.
يا إلهي ماذا حصل؟!!..
لا بد أنها تمازحنا!.. طبعاً ستستفيق بعد لحظات..
إلى أين ذهبت أيتها الغالية غلاوة الروح؟!..
أرجوك عودي فعودتك هذه الليلة هي الحياة، لا تقتلينا أيتها "الحنونة" كما قتل حياتنا من سلبوا حقوقنا وتركوا لنا "فُتات" كرامة مع إرث طائل من الذل.
لم تسمعني، ولم يرف لها جفن ضوء... وهل يسمع الميت؟!.. انسلختِ من قلوبنا، فليرحمكِ، ويرحمنا الله..
يا شوقنا لإطلالتك البهية.. لنا من بعدك طول الفناء.
ارتفع بكاء ابنتي..
لا تخافي يا صغيرتي، الحكاية لم تنته بعد، سنترك لكم حكايات ذل كثيرة تروونها للأجيال القادمة.

حملت خيبتي وما بقي من أعصاب‌ـي المحترقة، وقمت للبحث عن وسيلة للإضاءة..

وجدت نفسي أسبح بالعتمة، ويا لها من سباحة فريدة عندما تنقطع الكهرباء فجأة ولا يكون بمتناول أيدينا وسيلة للإضاءة!..

فنضطر للغوص بالعتمة في رحلة خطرة، بحثاً عن "فانوس سحري" فنرتطم هنا وهناك دون أن نشعر، وفي الصباح نجد جسدنا موشوماً بالأزرق والأصفر.

في هذه اللحظة السوداء تذكّرت جدتي، كانت علبة الكبريت لا تفارق جيبها، كانت دائماً مستعدة لأي طارئ.

فجأة رأيت عينين تحدّقان إليّ وسط العتمة، نقطتي ضوء مصوّبتين نحوي، يا للرعب!.. وكأنه وجه جدتي!

ارتجف قلب‌ـي من الخوف، يبدو أنني أُصِبت بالهلوسة... هل كان ينقصني رؤية الأموات، يا إلهي ما هذه الحياة!...

"ستي يا ستي!.. شو جابك من قبرك يا ستي بهالوقت الأسود!". سمعت صوتاً مليئاً بالحنان والغضب يقول لي:

"جيت ضويلك يا بنتي ما تخافي."..

لم يكن لدينا كهرباء يا ابنتي.. لكننا كنا نمتلك النور، كان لدينا دولة أمن وأمان وإيمان..

كان عندنا كرامة ورجال، كان رأس كل منهم يحمل نوراً أكثر من كل محطاتكم الكهربائية ليصل شعاعه إلى آخر الكون..

كان عندنا جبران وفلسفته، والآن أنتم عندكم "الزعيم" وبلطجيته!!

كان عندنا حضارة تولد النور، ولم نكن ننتظره حتى يأتي هو إلينا.. أنتم أخترتم حياة الكهوف يا ابنتي.

صوت ما.. ترافق مع ضوء صغير أعادني إلى الواقع وأخرجني من تأنيب جدتي..

إنه تنبيه من الهاتف ينذرني بأنه في الرمق الأخير وبحاجة لإسعافه بالطاقة...

وكأنه كان خشبة الخلاص، تشبّثت بضوئه الضعيف، ورحت أبحث عن شمعة، لم أجد إلاّ بقايا شمعة صغيرة، يا للمصيبة!.. كيف نسيت شراء الشمع؟!..

الغرفة بدأت تتحول إلى شبه فرن متأجّج، الحر لم يعد يُطاق..

فتموز هذه السنة جاء مصطحباً معه كل أفراد عائلته، من الكبير إلى الصغير إلى "المقمّط بالسرير" [2] ... ما أسعد البرغش وحقّق أهدافه، ورفع نسبة تكاثره، وقدم له التسهيلات اللازمة في إقامة مهرجاناته الدموية على أجسادنا... وقضى على كل أسباب البطالة، فاتحاً لهم أبواب الرزق على مصاريعها.. أصبحت البرغشة بحجم الدبور.

أطلق "البرغش السعيد" كل ألحانه "الصاروخية" ما نكاد نسمع صفير البرغشة حتى تكون "شفطت" ما طاب لها من دمنا، وطارت سعيدة متخمة "عم

تمزمز بتمها".
اشتريت "ماكينة" برغش تعمل على البطارية "ما شاء الله عليها" كانت معطلة في علبتها، (حتى التجار، كما الزعماء، استرخصوا حياة الناس ويستوردون أدوات تالفة في مصانعها بأسعار لا تكاد أن تُذكر، ويبيعوننا إياها على أنها صالحة للاستعمال)، أصبح البرغش يأتي ويتفرّج عليها.. وتلك الأقراص المسماة "كتول".. مبيدة لرئتيّ الإنسان كادت أن تقتل ابنتي.
البرغش يغنّي ونحن نصفّق، على كل بقعة ظاهرة من جسدنا نصفّق...
كم تمنّيت أن تصبح يداي أربعاً، لأقدم لابنتي المقعدة اثنتين تدافع بهما عن نفسها...
كم تمنّيت لو أستطيع إعطاءها قدميّ لتخرج بهما إلى الهواء.
كم تمنّيت تلك اللحظة، أن يكون أحد أبناء الذين يقطعون عنا الهواء وينعمون بمالنا ويتحكّمون في حياتنا وموتنا مكان ابنتي..
ربما كان شعر بمعنى عذاب إنسان عاجز مريض في ظروف كهذه، وأدرك ما جنت يداه من إجرام بحق المواطن المسكين.
لا التلويح بالمجلة، التي أحاول بواسطتها إبعاد البرغش وجلب الهواء لابنتي أتى بفائدة، ولا الوسائل الأخرى، مثل رش العطور حولها وترطيب رأسها بالماء أعطت نتيجة..
فقد ارتفعت حرارتها، وضاقت أنفاسها.. وبعد أن كانت تبكي أصبحت تئن.. وكأن يد الموت بدأت تحيط بها، صدرها المصاب "بالربو" لم يستطع الصمود أمام الجحيم المستمر منذ أيام.
أين أنت أيها الصباح؟!..
أرجوك أسرع في المجيء...
لماذا لا تتحرك وقدماك لا تزالان مسمّرتين في العتمة؟!...
لأجلنا تعالَ باكراً.. من أجل الأطفال المرضى، لأجل العجزة، لأجل الفقراء والمقهورين.
لا الصباح سمعني، ولا أنا عدت أسمع صوت ابنتي...
"ماما حبيبتي لا تتركيني، سامحيني أنا السبب!.. الناس الذين اختاروا قاتل أولادهم هم السبب..
شعرت أنني في القبر، أُحاسَب على جريمة انتمائي لوطني.
حملت ابنتي مع ما بقي من أنفاس خافتة في صدرها، وهرعت بها إلى الطريق، كان الظلام في الخارج كبيراً بحجم غبائنا...
على باب المستشفى استقبلنا وجهُ شيطانٍ يرتدي ثياباً بيضاء قائلاً: ممنوع الدخول قبل دفع التأمين!!

- يا ملاك الرحمة ابنتي تموت وهي بحاجة إلى الأوكسجين...
- الأمر لا يعنيني.. إنه القانون.

تمت

---

[1]هو كمية البن التي ترسّبت في قعر الفنجان.

[2] "المقمّط بالسرير" هو الطفل المولود حديثاً حيث كانوا يضعونه في سريره ويحزمونه بشريط عريض من القماش كي لا يقع عند هزّ السرير به.

حنان رحيمي

بائعة الأعشاب

قصص

من الواقع

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.